

عام جديد بلون الكرز

مختارات من أشعار ونصوص

مالك حداد

ترجمة: شرف الدين شكري





عام جديد بلون الكَرز

مختارات من أشعار ونصوص

مالك حداد

ترجمة: شرف الدين شكري

توطئة: سليم بوفنداسة

كتاب الدوحة 32

يوزع مجاناً مع العدد 75 من مجلة الدوحة يناير 2014

عام جديد بلون الكَرز

مختارات من أشعار ونصوص

مالك حداد

ترجمة: شرف الدين شكري

توطئة: سليم بوفنداسة

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

لوحة الغلاف : سلمان المالك - قطر
الإخراج والتنفيذ : علاء الألفي - مجلة الدوحة

فهرس الكتاب



توطئة

الأمير البربري
الذي عاش في غير موضعه

لازال مالك حداد يمارس سحره على الأجيال الجديدة من كُتّاب وقرّاء المغرب العربي الكبير، كأنّ الموت والصّمت لم ينالا من حضوره، كأنّ تأثيره يزداد كلّما رسخ في الغياب.

والمدهش في حالة مالك الذي كتب بالفرنسية أن تأثيره امتدّ إلى كُتّاب العربية، كشأن أحلام مستغانمي التي وقعت تحت سطوة لغته في ذاكرة الجسد، هي التي لم تخفِ ولعها بحداد شخصاً ونصّاً.

وربما كانت الشعرية الطاغية في نصوص مالك حداد هي التي منحتها أكثر من حياة، وجعلتها مفتوحة على التأويلات الدائمة، فلا فرق بين شعره ونثره، وربما تحوّلت الرواية معه إلى نشيد عذب تترقرق الأغاني من جوانبه. لا بل إن الحياة ذاتها ستتحوّل إلى شعر. أليس هو من اعتبر الحياة «ظاهرة أدبية»؟ نعم، عند مالك تكفّ الحياة عن نفسها، وتتحوّل إلى أدب، فلا يدرك قارئه مسلوب الأنفاس أين يبدأ الأدب، وأين تتوقّف الحياة، حياته هو التي انتهكها أدبياً، فاختلطت الحياة بالأدب، وتحوَّلا إلى شيء واحد.

ورغم رحيله المبكر وصمته الطويل إلا أنه احتلّ مكانه الأثير بين الآباء المؤسِّسين للأدب الجزائري، في الرواية كما في الشعر.

ولم ينل من هذه المكانة شحّ إنتاجه الذي توقَّف في أربع روايات كتبها في السنوات الأربع التي سبقت استقلال الجزائر ومجوعتين شعريتين إلى جانب أشعار ومقالات متفرّقة. ويكشف نتاج مالك حداد عن كاتب فريد من نوعه كان من أوائل الكتّاب الذين استدرجوا الشعر إلى أرض الرواية. لكنه مقابل ذلك لم ينل حظّه من الدراسة ومن الترجمة إلى العربية، حيث كانت الترجمات الأولى التي استهدفت أدبه «مبادرات تضامنية» أكثر منها ترجمة أدبية لغوية، كان الهدف من ترجمته إبراز كاتب أعلن غربته في لغة الآخر، حتى وإن أحبّ هذه اللغة وأجاد الغناء بها. أو تعاطفاً مع الجزائر من خلال إبراز أدبها وتقديمه إلى قرّاء المشرق العربي لفكّ عزلة ثقافية بَنَتْ جدرانها فرنسا الاستعمارية. ولم تكشف ترجمات ملك أبيض العيسى، وسليمان العيسى، وسامي الدروبي عن الوجه الحقيقي لمالك حداد ولا عن أدائه الأدبي الرفيع، لأن السرّ في كتابات مالك الروائية، على سبيل المثال، ليس في القصص المسرودة ولكن في الطريقة التي كان يدير بها الكاتب اللعبة السردية. لذلك كانت الترجمات المغاربية هي الأقرب إلى النصوص الأصلية لمالك مع التفاوت بين ترجمة وأخرى، ما يجعل باب الاجتهاد مفتوحاً على الدوام للاقتراب من هذا الأمير البربري الذي فضَّل مواجهة العدو بسلاح الهرموينيكا. والذي جرى تأويل نصوصه ومواقفه إلى حَدّ التحريف، أحياناً.

ورغم أن أغلب نصوص مالك حداد كُتِبت في المرحلة الأخيرة من حرب التحرير الجزائرية إلا أنها لازالت تحافظ على «راهنيّتها» لأن الحياة كانت موضوعتها الرئيسية، بداية من حياة الكاتب التي يمكن أن نكتشفها في نصوصه الروائية والشعرية، التي كانت بمثابة سيرة مموَّهة،

فخالد بن طوبال في رواية «رصيف الأزهار لم يعد يجيب» هو مالك حداد، الذاهب إلى فرنسا لملاقاة صديق، وبالطبع ستكون الصدمة في رصيف الأزهار، حيث لا أحد ينتظر الضيف القادم بأمر من حرب قرّرت رحيله ليسقط كشعرة في حساء صديقه وزميله في الثانوية «سيمون قج» الذي يقابله في الواقع رولان دوخان صديق مالك في قسنطينة الذي أكمل حياته السعيدة هناك في فرنسا. وبالطبع سيعرض عن حب ينمو بينه وبين مونيك، ويتجرَّع خيانة وريدة الحبيبة الجزائرية التي لم تصبر على الفراق،وباعت روحها لجندي فرنسي. قد تكون مونيك جميلة كما فرنسا: «في بلادها، في بيتها، فرنسا جميلة. في بلادها، في بيتها، فرنسا لا تفكر أبداً في الحرب». فهل كان الإعراض عن مونيك إعراضاً عنها وهرباً من المنفى الذي هو عادة سيئة عليه تعلُّمها؟ لكن الشعرة التي سقطت في الحساء ستنتزع الحب، لأن السيدة التي قالت «للمؤلف» إنها لم تحبّ كتابه جاءت لتعترف له بأنها كانت تكذب، وطلبت منه أن يمنحها شرف تقبيل اليد التي يكتب بها، ولأنه سيعلّم ابنة صديقه كيف تنطق كلمة (حرّيّة) بالعربية، حتى وإن استسلم في نهاية المطاف إلى الانتحار كضرورة اقتضتها الخيانة، ولم يفرضها المنفى.

بعيداً عن الرموز تختفي السيرة الملحقة بقصص ستغطي عن القصة المحرّكة، تماماً كما سيحدث في رواية «سأهبك غزالة» حيث يستأنس مالك الصحراء التي ذهب إليها مدرّساً لفترة وجيزة في رواية تسرد رواية أخرى. روائي في منفاه بصدد نشر رواية عن الصحراء تطالب فيها البطلة ياميناتا البطل مولاي بغزالة حَيّة، الكاتب صاحب رواية الصحراء يرافع عن حب بعيد وهو يقترب من الحب دون أن يصيبه في منفاه حيث يستعين على الحياة باللغة، يفتّش في أعماقها عن رابطة إنسانية مع الفرنسيين الذين أحبَّ لغتهم وطريقتهم في الكلام حتى بدت له اللغة

فرنسية في أصلها. أما رواية الانطباع الأخير ففيها يرصد مالك حداد العلاقات الخطرة مع الآخر، مع العدو الحميم الذي يدفع المهندس سعيد إلى نسف الجسر الذي اجتهد في رسمه، والتخلّي عن لوسي حبّه المستحيل. لكنه يقاوم لئلّا ينسف الجسر في صراع رهيب بين مُثُلِه وما تفرضه الحرب من ضرورات. ضرورات ستجعل صالح إيدير في «التلميذ والدرس» يشعر بذنب من لم يذهب إلى حرب تعنيه، ويرفض إجهاض ابنته التي حملت من عُمَر رفيقها في النضال الوطني، فبقدر ما كانت فضيلة تريد التخلُّص من البذرة التي في أحشائها كان الأب يريد الحفاظ عليها. وكان عليه أن يصغي إليها وهي تقابله كعاصفة لتلقّنه الدرس الضروري، وتتركه تحت لهب مشاعر ذنب اعترت مثقّفين تَخلَّفوا عن الإسهام المباشر في الحرب، مشاعر انعكست في أول رواية وفي آخر رواية لمالك حداد.

ومثلما كانت رواياته سيرة مموَّهة كانت أشعاره أيضاً سيرة جمع فيها بين الهمّ الشخصي والهمّ الجمعي بأسلوب فريد لا يضاهيه في العربية سوى محمود درويش مثلما أشار إليه مترجم هذه المختارات.

ورغم أن الشاعر لم يُصدِر سوى ديوانين في حياته هما «الشقاء في خطر» و«أنصِتْ.. وسأناديك» إلا أنه يُعتَبر من قِلّة من الكتّاب المتمكِّنين من ناصية الشعر إلى درجة أن كلامه العادي ومقالاته الصحافية كانت شعراً. إنه ساحر يسحر كل من يقرأه أو يستمع إليه، وحتى وإن شاء دارسون أن يصنِّفوه في خانة الكاتب الملتزم، فإن التزامه كان طبيعياً، أي ابن مواقفه الشخصية من الحياة والعالم لا وليد إكراه خارجي. فمواقفه التي آخَذَه عليها مثقفون، مثلاً، ومنها تدعيمه للانقلاب الذي قام به الرئيس الراحل هواري بومدين على سلفه أحمد بن بلة، وخدمته لنظامه بعد ذلك، جاءت عن قناعة كاتب كان يرى أن البلاد في طور البناء، وتحتاج إسهامه، هو

اليساري الذي انتمى في شبابه الأول إلى الحزب الشيوعي، بل إنه لم يكن يتردّد في انتقاد الذات، مثلما روت ابنته صفية التي ذكرت أنها لامته على سلوك صدر منه في الجزائر العاصمة، حينما ألقى بسيجارته في مدخل عمارة فخمة، وجَابَهَ عبارتها القاسية بأنه لا يمكن تنمية بلاد بهكذا سلوكات بقوله: «أنسيت يا ابنتي بأنني أمير البلدان غير النامية!».

والحق أن علاقته بالسلطة بعد الاستقلال كانت محيّرة، وحتى وإن كان من الصعب قبول التفسير الذي جرى تقديمه لصمت مالك حداد الأدبي وانخراطه في النشاط الإعلامي والثقافي: ممارسة الصحافة بإشرافه على الصفحة الثقافية لجريدة النصر، ثم انتسابه لوزارة الثقافة كمسؤول سام، وتولّيه رئاسة اتحاد الكتّاب الجزائريين، وإصداره لمجلة «آمال» التي اهتمَّت بأدب الشباب. حيث فُسّر صمته برفضه الكتابة بالفرنسية. لكن الفرنسية ذاتها كانت (ولا تزال) هي لغة الإدارة الجزائرية. وحتى وإن كان مالك يشعر بغربته اللغوية في فترة الاستعمار فإن الغربة ذاتها لن تكون معذِّبة في مرحلة ورثت الجزائر فيها الفرنسية كغنيمة حرب مثلما قال كاتب ياسين صديق مالك الذي ناصب السلطات العداء، وبادلته الشعور نفسه.

صحيح أن مواقف مالك حداد كانت واضحة من العربية والهوية والثقافة الوطنية، وصحيح أنه كان يعتبر نظام التعليم الفرنسي الذي ساد في الجزائر خلال الاستعمار منهجاً لتحويل الجزائري الذي يجتاز البكالوريا (الثانوية العامة) إلى فرنسي. وصحيح أنه قال بحرقة لزملائه في جريدة النصر أنه كان يتمنّى أن يقرأ المتنبي وأحمد شوقي بالعربية (وفق ما رواه زميله زواوي بن خلاف)، إلا أن ذلك لا يبرّر الصمت المأساوي الذي خلد إليه الكاتب بعد الاستقلال وتوافقه التام مع السلطات إلى غاية وفاته، ويجعل من سلوكه أمراً محيِّراً يحتاج الدراسة، في ظلّ نقص

الشهادات التي قُدّمت عن الكاتب من مجايليه ومعارفه الذين حوّلوه إلى أيقونة غير قابلة للنقد.

وربما لن تقدِّم سيرته الشائعة الأجوبة الشافية، فالرجل وُلِد سنة 1927 في قسنطينة لأبٍ أمازيغي يشتغل بالتدريس هو سليمان حداد. وفي قسنطينة التي تحوَّل إلى مغنيها الأول درس مالك، وكان يرى في المدرسة الفرنسية حاجزاً بينه وبين ماضيه وتاريخه أكبر من البحر الأبيض المتوسط الذي يفصل الجزائر عن فرنسا، لينتقل بعد ذلك إلى فرنسا حيث التحق بكلية الحقوق بمدينة أكس أون بروفانس، لكنه لم يكمل دراسته وهجرها سنة اندلاع الثورة 1954 ليشتغل في مهن يدوية وفي النضال السياسي إلى جانب الكتابة الأدبية التي دشَّنها سنة 1956بديوان «الشقاء في خطر». وفي 1958 نشر روايته الأولى «الانطباع الأخير» لينشر بعد ذلك رواية «سأهبك غزالة». وفي سنة 1960 أصدر رواية «رصيف الأزهار لم يعد يجيب»، لينشر في السنة الموالية روايته الأخيرة «التلميذ والدرس»، وأصدر في السنة نفسها ديوانه الشعري «أنصت .. وسأناديك»، وكتاباً حمل عنوان مقاله الشهير «الأصفار تدور حول نفسها» الذي كان بمثابة بيان يحمل موقفه من الكتابة والهوية، حيث يؤكِّد فيه أن الكتّاب الجزائريين، وإن كتبوا بالفرنسية فإنهم كتبوا بروح جزائرية، منبهاً إلى الفرق الحضاري بين اللغتين، وربما ترجم إلى لغة البيان ما ورد فناً في أعماله، فبطل «سأهبك غزالة» كان يقول إن الأمير الحقيقي لن يكون في موضعه، فيما كان يقول صالح إيدير «بطل التلميذ والدرس» إنه لم يكن أبداً في موقعه لأن التاريخ أراد له أن يركب حصاناً واحداً في عصرين مختلفين وفي حضارتين مختلفتين.

بعد الاستقلال عاد مالك إلى الجزائر، وعاش مرحلة صعبة، إلى درجة أنه لم يكن ليجد ثمن السجائر (وفق ما رواه ابن أخته جمال علي خوجة

الروائي أيضاً وأستاذ الآداب الفرنسية في جامعة قسنطينة لكاتب هذه السطور). في تلك السنوات تألّم مالك لكنه ظل يستمتع بالحياة العائلية وحياة القراءة والكتابة في بيته بأعالي قسنطينة، بيت يستدرج الحمام الذي يحبّه مالك، ويستدرج أيضاً القطط التي يطاردها ليلاً، لأنها تفسد عليه حاجته إلى صمت تقتضيه الكتابة، الكتابة التي تخون صاحبها وتعرض عنه، بعدما كانت تهاجمه قبل الاستقلال وهو يطوف شوارع قسنطينة وفق ما يكشفه جمال علي خوجة الذي شهد ميلاد «الشقاء في خطر» ككلمات على شفتي خاله في شوارع قسنطينة التي كانا يتجوَّلان فيها معاً في الصباحات الرمادية التي لازال يذكرها كأنها حدثت البارحة. كان مالك يمسك بيد الطفل الصغير وهما ينزلان من شارع «الفوبور لامي» ويقول له وهو يشير إلى المدينة الهاجعة فوق الصخرة المقابلة: انظر إنها تناديك. وفي الشوارع يحدث أن يترنّم مالك بكلمات كتلك الكلمات التي كان يسمعه يردِّدها ليلاً وهو يطوف بين أروقة المنزل، يكتب النشيد بالأخضر على كراسته، ثم يرتِّله بصوت عال لا يقطعه سوى ألم قرحة المعدة التي كان يعاني منها، وسيعرف الطفل فيما بعد أن تلك الكلمات اسمها «الشقاء في خطر».

صَمَتَ مالك بعد الاستقلال، ولكنه لم يصمت تماماً، فحتى وإن كانت المقالات الصحافية التي يكتبها مرتبطة بالواقعين الثقافي والسياسي الجديدين إلا أنه لم يكفّ عن تأمُّل حالته وحالة الأمة هذه المرة، حيث كتب سنة 1967 افتتاحية شعرية مؤثِّرة في جريدة النصر بعنوان «أنا في بيتي في فلسطين». ويروي زملاؤه في النصر أنه عاش النكسة بألم كبير حيث ظلّ ممسكاً بمذياع، يسمع الأخبار بتأثّر، ولا يصدق أن الأمور تسير نحو الهزيمة، أو يركض باتجاه التيليكس منتقداً تحيُّز وكالتَي الأنباء:الفرنسية، ورويترز لإسرائيل.

وكان الرئيس الراحل هواري بومدين وراء انتقال مالك حداد إلى العاصمة، بعد أن سأل عنه في أول زيارة له إلى قسنطينة، وأخرجه من عزلته، وربما أخرجه بذلك من الكتابة. في العاصمة أشرف على إدارة الحياة الثقافية من موقعه كمسؤول في الوزارة ثم كرئيس لاتحاد الكتاب الجزائريين، لكنه وبانغماسه في «النضال الثقافي» ابتعد عن الكاتب فيه، ابتعد إلى حَدّ الموت. الموت الذي قطفه سنة 1978 وهو في الواحدة والخمسين.

وقد تعاون الصمت والموت ليحرما الجزائر من صوت أدبي فريد تبدو اليوم استعادته ضرورية. ومن محاولات استعادته الجهد الذي قام به الكاتب والمترجم شرف الدين شكري وهو عاشق لمالك حداد عايش نصوصه الروائية والشعرية ودرسها واشتغل عليها لفترة طويلة تكفي ليحمل عنه صوته إلى لغة تمنّى الغناء بها، ويحمل عنه ظله إلى زمن آخر، زمن لم تنضج، بعدُ، فيه الأحلام التي ربّاها مالك بيديه. وتكفي ليحمل السماء الزرقاء القديمة عن كتفيه، ويهشّ الغربان عن قسنطينة النائمة في عشّها الأبدي بين الغيوم. خصوصاً وأنه يحفظ جيداً قول مالك: «ما سيقولونه عني سأفصح عنه أنا شخصياً». والمشفوع بتحذير مؤدّاه أنه لن يسمح لأحد أن يمتلك أغانيه. أغانيه التي كان يخشى ألا تصل إلى المعنيين بها، فصرخ بلسانه ولسان غيره من الكتّاب الجزائريين الذين ترجموا أرواحهم بفرنسية منحتهم اللذة والألم في آن: «نحن أيتام القراء». وبالطبع كان ينعي شعره وأشعار جيله التي لا تصل.

ولم يكن خوف مالك على حق، فكلماته حفرت مجراها ووصلت. كانت تصل كلما أمعن هو في الصمت أو تمادى في قيلولته هناك تحت أشجار الصنوبر والأبوكاليبتيس، حيث تطوف الفراشات على سريره الأخير كي تحميه من النسيان. لم يكن خوف مالك على حق لأن لغته لم تكن غريبة، ولم يكن في حاجة إلى أن يحسد الصمّ البكم على سعادتهم العجماء لأن

الموجودات كلّها كانت تصغي إلى لغته قبل أن ينادي.

وها هو صوته،عبر هذه الترجمة، يصل إلى أجيال جديدة من القرّاء العرب الذين سيعيدون الأمير إلى مكانه الحقيقي، وسيطرقون بابه بكل قوة، لأنهم يعرفون أنه لازال يقيم هنا.

سليم بوفنداسة



عام جديد بلون الكَرز

مختارات من أشعار ونصوص

مالك حداد

إهداء

كثيرة هي الأساطير التي تـونع في حياتنا بعيداً عن الواقع، وتنسج أنفتها معلّقة بين سماءٍ وأرض، كي نتعلّم منها كيف نطيرُ دوماً كالصّقور الشّامخة بعطائها الذي لا ينضب...عطاء أعظمُ من الواقع، وأقلّ قليلاً من الخيال، حتى يتسنّى للاّنهاية أن تحتوينا دون وجل....نحن أبناء الصّقور...

إلى نورة غمري وأخواتها الستّ...

أفعالاً غير متعديّة، وقابلةً للصرف...

وسعيدة... والدتي دوماً.

كلمة المترجِم

بعد أكثر من عقدين من الزّمن، مضيا على معايشتي لعوالم مالك حدّاد، تيقّنتُ بأن مشكلة هذا الكاتب، في حقيقة الأمر، لم تكن مع اللغة كما فهمها الكثير من النقّاد والمتتبعين لأدب هذا الروائي والشاعر العالمي الذي لم يُستَنْفذ كأثرٍ أدبي حتى السّاعة. مشكلة مالك كانت دوماً مع الفن...الهوية التي أنشدها دائماً في كتاباته، كألم نازف مصدره معروف كفاعل تاريخي مقيت، جلعت منه مؤرّخاً لا «يمّثّل» مرحلة الاستقلال بل «مرحلة مرضية» من تاريخ بلاده، هي مرحلة الاستعمار، ليس إلاّ. همُّه الفني ذاك لم يكن في سيبل البكاء الأجوف، وإنّما في سبيل إخراج نبتة الجمال إلى سطح الإنسانية الواسع كي يدركَ العالمُ أن ثورة تحرير الإنسان الجزائري لم تُختزل في جعجعة أسلحة طاحنة تُبادِلُ العنفَ بالعنف كما أريدَ للسياسي الذي لا يدرك الدّفاع عن حقوق النظرية أن يتقوّلَ، وللعسكري الذي لا يتقن إلا أوركسترا السلاح كمنفذ وحيد نحو الحرية، أن يُقنع به الأجيال المُنْسَابَة من سِنيّ الحرية: رغم أن لا علاقة للحرية بالسلاح إلاّ كتابع خارج عن المنطق.

من ذا فهم أكثر من مالك بأن الحرب هي فقدانٌ للمنطق. وهي آخر حلّ

لا إنساني لقضية إنسانية ملحّة...؟

في مقدّمة «الشقاء في خطر» يتحدّى مالك بلسان ذلك الفرنسي العجوز لغة البنادق، ويرفض أن يحاربَ الإنسانُ أخاه الإنسانَ تحت أيّ ذريعة كانت، كي يقول للفرنسي ذاتَه بأن لغة الحياة، هي التي تتأبّدُ بين بني البشر، حتى وإن كان يحتلُّ أرض طفولته، ويحتلُّ أكثر، هويّتَه.

يعدُّ خطابُ الهويّة في أدب مالك أقوى هدف اشتغل لأجله ومحْوَرَ كل أعماله، لعلمه بأن فلسفة بناء الذات التي ربّاه والده عليها، والتي رفعَت من شأن فرنسا ثقافياً قبل أن تمتدّ إلى الصروح الحضارية، هي نفسها قوّة تدمير الوجه العنيف في الثقافة التنويرية التي تخفي الكثير من التعالي ومن العنصرية في السلوك البرّاني. وهي النقطة التي يستدلُّ بها عبر عبارات قوية جداً جاءت على لسان مصطفى كاتب في «الأصفار تدور حول نفسها»: «تمكنّا من مقاومة «بيجو»، ولم نستطع أن نفعل ذلك مع «موليير»».

كانت لغة السّلاح التي أشهرها الجزائريون، هي لغة التعبير عن تفاقم اليأس ليس إلاّ.انتفَت حينها كل صنوف الصّبر.تراكمتْ جثَثُ المطالَبَة بالمساواة خارج كلِّ أنواع الاحتمال. صار كلُّ شيء يتأرجح بين الشاعر والعسكري: أي بين الحياة والموت. صار الشاعر عسكرياً في انتمائه إلى حلم التحرير والمِراس السياسي عبر نصوصه، رغم إدراكه لفداحة الموقف، وصار العسكريُّ عسكرياً متشدِّداً بلا شِعْر؛ هذا ما سوف يطفح كالبثور على حضارة القتل التي مارسها الاستعمار، في «الشقاء»: «وحين يمضي جُنديٌّ للقتال، فليس من حقه أن يُغنّي. ولتحترم الأزهارَ، ولا تضَعْها على فوّهة بندقيّتكَ». حينها، سيؤكِّد مالك والبندقية، في حبره أن الحبّ يظلّ هو المرافق الأبدي للكاتب أينما كان، ويطالبه، إن هو تخلى

عن الحبّ، بأن يتخلى معه أيضاً عن الكتابة: «أنتَ تكتُب لأنّك تحبّ. إذا لم تكن كذلك فضع القلم..». هذه هي قمّة الصّراع الحضاري التي لا يريد المستعمر أن تتقن «الأندجينا» استعمال مفاتيحها. لذلك، سوف يدخل مالك حداد العملَ السّياسي السرّيّ، مما سيدفع بالبوليس السياسي إلى ملاحقته، كي تحطّ الفجيعة إلى الأبد في قلب «حمامة» والدته فجر ذلك اليوم، ساعة مرور بائع اللّبن ببيته في أعالي «الفوبور لاميه». سيغادر حينها أيضاً صفوف دراسة الحقوق في إيكس أون بروڤانس، كي يتسكّع بألمه مع كاتب ياسين ومحمد أسياخم في حقول «لاكمارغ» التي سترافقه رقصاتها حتى هضاب الجزائر وتلالها المشتعلة غضباً، فينتصر الكاتب فيه كمحامٍ، ويخيب المحامي فيه إلى الأبد.

من سيكتب حينها أجمل من مالك حدّاد عن غضب الحقول، عن الزُّرُع وعن النباتات البريّة، عن الدّلب وعن الزّعتر وعن العشرينيين الذين لا يرون في العاصمة إلاّ مقاهيها ومحافلها التي لا تنام في العيون المتطرّفة الزرقاء ومن والاهم من الموبوئين؟، من سيكتب أجمل من مالك حدّاد عن ڤيلا سيزيني التي شهِدَت آخر أيام الرجل الشُّجاع الذي أمرَ شعبه بأن يُبعد الثورة، حتى بعد استقلال بلاده أبداً عن الصالونات إلى شوارع الفقراء؟، من سيكتب عن أمطار الدّم التي هطلت على أعالي «النمامشة» التي لم يحسن العسكر المستعمر أبداً نطقها صحيحة، فحوّلوا غضبهم إلى حمّامات الاستنطاق التي تفنّنوا في استيلاد الاعتراف فيها من المسلوبين؟.

من سيكتب مثل مالك حدّاد عن أجمل امرأة تغازلها اللّغة ذاتها فتضوّعها باسم «جميلة»، وتعِدُها بطفل التعذيب الذي لا يموت؟...من ذا سيكتب عن أشياءَ كثيرة تنام في صفحات هذا الديوان المتعب؟ من سيكتب مثل مالك حدّاد حينها عن فسحات الحرية التي أدرك بأنها لا

تُعَدّ بالمسافات، بقدر ما تُعَدّ ببُعد الأحاسيس، كما كتب في»الأصفار» التي «تدور حول نفسها» بين جنسين بشريَّين يفرِّقهما الإحساس المقيت بالتعالي؟

***

وأنا أغوص في شعره أدركتُ أن كتاباتٍ لمالكٍ في النّصف الأخير من خمسينيات القرن العشرين، كانت تحملُ أولى تباشير الكتابة السريالية العربية، وأولى الرؤى الشعرية التجديدية التي سيعتمد عليها الشّعر العربي المكتوب باللغة العربية لاحقاً، والشعر الفلسطيني على وجه الخصوص، وشعر محمود درويش تحديداً. فلا تتصوّروا استغرابي البعيد وأنا أجول عبر كتابات ديوان: «أنصت وسأناديك»، كيف كانت تصحو معالم محمود درويش الشعرية التي تشكّلت ابتداء من «مديح الظل العالي» وصولاً إلى «الجدارية»!!!. حينها، بحثت عن شقوقٍ أو مساربَ شعرية تحيلني إلى مصدر وصول لفحات شعر مالك حدّاد إلى المشرق الذي! حينها، وقعتُ صدفة على مقدّمة بخط خالد سعيد، جاءت تحت عنوان: «المجموعة الشعرية التي غيّرت وجهة الشعر الفلسطيني»، فأيقنت أن نظرتي لم تكن بعيدة عن نظرة خالد سعيد.

شرف الدين شكري

أَنصِتْ .. وسأناديك

رغم أغانِي الأدغالِ المحروقة

أنصِتُوا إليّ،

إنّني أتحدّثُ بلسانِ الأموات

أنصتوا إليّ،

إنني أخطّ بيدٍ مكسورة على قيثارها

مرآتكم أنا

وجميلٌ هو المُجرِمُ

وأنا أحملُ الشُّحوب المناسِبَ

لتلك الحقيقة التي تؤلم حين تُقال

احذَروا سارقاً، كلّما عثَر شاعرٌ

في قلب إلهامه وفي قلب الكلمات

كلماتي التي أخطّها أنا تهوى الحساب:

تمّ القضاء على كذا جزائري!

احذروا سارقاً، كلما انتظرت القافيةُ في الحمّام

بيتاً شعرياً منضبطاً «هُمام»

كي تعرف الحبّ، تعرّف على جبل النمامشة[1]

على الهاتف وحوض الحمّام

احذروا سارقاً، كلّما همّ بكتابة قصيدة

جالَ في التّاريخ

صنعَ الجمال بكلمات

وزها بنفسه وهو ينظر إلى المرآة

1- النمامشة، هو اسم عرش النمامشة المتواجد في منطفة تبسة بأقصى الشر ق الجـزائري، والمـقصـود بهـا Nèmenchtas، وهي لفظ فرنسي غير دقيق لاسم النمامشة، حيث وقعت جرائم الاستعمار، وهنا يشير مالك حداد إلى وسائل التعذيب، التي كانت تتم عن طريق وضع المعذبين في أحواض الماء، وتسريب الكهرباء لأجل صعقهم في جلسات الاستنطاق.

مقصورةُ القشّ وكذا القلب؟

عند أعالي الجزائر

ڤيلا سيزيني[2]

هي برجُ صبابتي

جلٌّ حقائقي، هي حلمٌ لا ينقضي

عَـلّموني أن الطّيبة تربض بجانب الأطفال

أنا

عَدَدْتُ

الأحياءَ

الأمواتَ

والناجين

يلزمُنا ألف سنةٍ كي نقوى على النسيان

موسيقايَ نبعت

2- ڤيلا سيزيني: البيت الشهير الذي سيق إليه العربي بن مهيدي، ومحاربي معركة الجزائر، لأجل تعذيبهم وإعدامهم من بعد ذلك.

حين امتنعتُ

عن إزعاج

أولئك النائمين في كلّ مكان

فوق أرض الجزائر

أَنصِتْ، وسأناديك

ولتتذكّر ما يلي:

حين كنتُ أجرُّ منفايَ، أو أجرُّ جثتي

حين كانت عينايَ تريانك دون أن أقابلَ عينيك

إذا تصفحتُ جريدتي قبل أن أفتح بريدي بكثير

إذا كففتُ عن إعجابيَ بحنان الورد

إذا أنا أنشدتُ من بعيد النغمةَ التي يسمعون

إذا كان قلبي غائباً حين يهمُّ قلبُك بالتغنّي بي

أَنصِتْ، وسأناديك

فلتتذكَّرْ ما يلي:

أنني متُّ معهم.

انتظرتكِ سيدتي

وكلّ مساءٍ أنتظرُ...

هناك، في الصحاري التي بناها اليأسُ

في الرياحِ السّمفونية، بقلب الهضاب العاليات

عبر مساري الغابِ الجميل

عبر مساري «السولوني» الباكي على ضفاف الخرافة

عند مشارف طفولتي

عند مدينتي الحذرة عند أحلام الجبال

في كلِّ مكانٍ

يبكي

أو يتشكّل من الورد

عبر القمر المتعَبِ، أو الأَرَضَة الذابلة

في أرضِ القتالِ، في النّغمِ

في الطّائرة التي جرّحها شغفُ الاختراع

في الطّير الذي يعلو بدوَاره

في البحر الذي يوشوش للموج أسرارَه

في الرّغبة المنتهية، عند منتصف الليل

مرعوباً سمعتُ

أغراباً يطرُقُون الباب

فلتأتِ زهرةٌ، لترقصَ في فمي

ولتنته الفكرةُ الأخيرة

على غلافِ الواجِهة...

كم تمنيتُ لو أن الموتَ يثير غرابتي

للطيران قسوةُ الأخطار التي نرضى بها

أيُّها الطيّار! يا صديقيَ

هذا الغيمُ لا شيءَ

أكبرُ أنتَ، من هذا السّحابِ

صغيرِ الجبهةِ

كان سيكفينا، كفانا

بعضُ هذا الغيمِ، وبعضُ هذا الريح

كي نعرف بأن قلبكَ لا يخشى الارتفاع

أيها الشّاعرُ، يا صديقي

للحبّ قسوة الجنائزِ البسيطة

كنتُ سأفضّلُ

خاصّةً

أن أكسِبَ رضاء الآخرين

وأن أنصِتَ للمطر...

يلزمنا بعضٌ من كل شيء،

كي نصنع حلماً

ليمونةً ومحاراً

لؤلؤة

وبعض رجال

طبعاً،

غيرُ متكافئٍ

هذا الرّابط تقريباً:

أشربُ الماءَ أنا

وأنت على النبع.

إذا ما قلتُ بأنّ لهذا الحبِّ

طباعُ غاباتي

بأن فجراً جديداً لعيوني التي تحضُنُكِ

بأنّ يدي التي ترسم حمامةً على خدّك

هي ميقات رقصةِ ڤالس

على البحرِ الساكِن

إذا ما قلتُ بأن هذا الحبَّ

يعرفُ رائحةَ الخبز وجبينَ الفلاحين

بأنني وُلدتُ أمسِ، والآن أحبُّكِ

إذا ما قلتُ بأنَّ هذا الحبَّ

كبيرٌ كالأمل الذي تنتظرني عنده غزالتي

إذا ما قلتُ بأنّ هذا الحبَّ

هو طريقتي في التقرّب إلى الله

بمائة توبة مع اعتذاري على إيماني.

جَزِعٌ أنا لأنني أستحقٌّ هذا الحوارَ الأبدي

وأنا...سأصمتُ حينها

لأنني غيرُ جديرٍ بالقيثارة

لأجل جميـــلة[3]

غداً، ستكونُ الأمطارُ لكِ

والحصادُ..سيكون لك

وغداً، سوفَ نَمضي لكي نُـلقي السّلام على الجزائر

كنتِ، عبر الهُنالك عربونَ العصافيرِ

ستكون الأمطارُ لكِ

غداً، سوف نبني معبدَ الماضي

غداً، سيكونُ الصّباحُ لكِ

فأيُّ حليب هذا الذي بإمكانه أن يتشرَّبَهُ؟

هذا الطّفل الذي سوف يجيء منكِ

3- جميلة: المقصودة هنا هي جميلة بوحيرد

جميلةُ! هل سيكون هذا الولدُ أميراً أم تذكاراً؟

لا تخشَيْ شيئاً يا طيِّبتي

سوفَ يصبحُ أميراً وتذكاراً

في جزائرَ شبيهة بالورقة البيضاء

التي خُطّت بحروف بارزة

سوف أصرخُ: جميلة!

سوف أكتبُ: جميلة

وإذا لزِمَ الأمرُ سوف أتحوّلُ من أجلكِ إلى موهوبٍ!

أتأمَّلُ اسمكِ، وهو يطالب بقافيةٍ

من الخريف إلى الربيع..إنّه ميقات اللّيلج

بالعربية، للجميلة قوام الجُرم

وعندنا، يُسَمّى الشّرفُ: جميلة

احتـــــراز

أمدّدُ مستقبلي كي يتجفَّف تحت الشمس

نملةٌ ترافقني

صرصُورٌ يُكثِرُ من الجعجعة

وعند الجبل

تُهدي بنفسجةٌ بيضهَا- الليلجَ

فلتتباهَي إذن يا قافيتي

ببسالة ندى البحر

أو مذاق التُّوتِ العلّيق

غداً..علينا أن نتغيّر

أمدّدُ مستقبلي لكي يتجفَّف

منفـــــى

تعرف حقيبتي

حسرةَ البيوتات

حلقة الأطفال

حَولَ خرافة

بلا عنوان

كنتُ، سأقيمُ في أيّ مكان

إنّهُ قَدَرُ الطيور

يُحسِنُ الحظّ ترتيبَ الأشياء

ندى البحرِ في الحديقة

زاوية حبّ لأجل وردة

والحمامة على السّطح

بداية منفى: إنها تمطر

أيُّها الظلُّ المرفوعُ الطّوق

إنّها تمطـــر

حينَ تمطرُ، أكون بعمر السّادسة عشرة

المدينةُ، تخشى الغرباء

وهي تحبُّ عاداتِها تلك

أمشي

أهيمُ

سوف أقرأُ رسالَتَكِ

سوف أُغنّي رسالتي

أنا قارّةٌ تحلم بالزوغان

جاءوا إلى بيتي(4)

بقسنطينة

4- حين باشر مالك حدّاد العمل السياسي، بعد التحاقه بالثورة، كان بيته عادة ما يتعرّضُ للتفتيش من قبل البوليس السّياسي الفرنسي، كانت والدة مالك تتعرّض للأذى النفسي بسبب تلك المداهمات وخشيتها على حياة ابنها.

جاءوا مساءً

فهم يزعِجون الأحلام دوماً في المساء

والدتي وجلةٌ

وبيتي يغمضُ عينيه.

أنا المسافر في العهد الباروكي

للحديقة التي تبتسم

للمرآب الذي يتأمّل

أغيّرُ مسكني كلّ شهرين تقريباً

إنها تمطـــرُ

المدينة تخشى الغرباءَ

وهي تحبُّ كثيراً عاداتِها...

العــودة

على ورق مدرستي

عبر محبرة التلاميذ

أغرفُ أغنيتي في «شارع العرب»

عبر شهادة منفاي

كل قصيدة لي

كتبها آخرُ

بدءاً، أطفالي في بلد بلا نجوم

ووالدتي هناك، كَـيَدٍ قادمة

أتخيّلُ ابنتي، وأخشى أن ينتابَني الخوفُ

أخافُ لأجل هذا المركب الذي يمضي في سبيله دون نجومه

أبداً...أبداً لن أبوح بحبّي كلّه

عندئذ سأرى ابنتي في بلاد كلوفيس[5]

كان- ربّما- فرنسياً جيداً

بيد أنني كنت أودّ بشدّة لو أن الشيخ ابن باديس

يقصص عليها بالعربية

ما أنشُدُه

أنا بالفرنسية

احكي لابنتي

وأنتِ في طريقك إلى المدرسة

تنهلينَ من مصير الباروك وعبث بلا معنى

لابنتي المنفية تماماً مثل قلبي

لابنتي، أغنيةً جَروحاً

صغيرة

5- واحد من الشخصيات التاريخية الأكثر أهمية في تاريخ التقليد الجمهوري الفرنسي وأول ملك لما أصبح يسمى فرنسا.

لنادية[6]، بعيداً عن الجزائر وعن جدّتها

لأغنية منسيّةٍ على أثرٍ قديم بلا طعم

لنادية وهي تَعُــدُّ داخل محفظتها الحمراء

المائة ألفِ حجّة لأغانيّ المنتحبة

ماذا تبقّى من الأزاهير التي كانت تضحك أيامَ الآحاد

ودرب «الفاصلة الزرقاء»

في صباح المحاصيل الراقصة

وفي المساء حين تستمعُ القرية

للشمس وهي تحكي عن يومها

أخبريني

ماذا تبقّى

من «شارع العرب»

من سوق «التروبادور»

من السّهل المنقطع النّفَس

6- نادية: شخصية في رواية « التلميذ والدّرس». وهنا تتكرر، كما هي عادة الكتابة عند مالك حدّاد، الشخوص نفسها عبر أعماله لتغدو كلها تقريباً نسيجاً موحّداً بين أغلب الأعمال التي يُعتبر كل منها امتداداً فنياً للآخر.

أخبريني

ماذا تبقّى من الأيادي

التي كانت تطرّز أحادِيّ

من اليوم الفاصل

من شجرة الوردِ الشعثاء، في ڤالس الأرامل؟

تعرفون البائع الذي يبيع البالونات

قريباً من المحلّ الكبير

للزّوروات والطرزانات[7]

للفنانات الجميلات

تذكّروا أيضاً أنّه، وفي «شارع العرب»

على الكرسي الصّغير في زاوية سنيّ العشر،

سوف تجدون بعد بحثٍ دؤوب

الزوروات والطرزانات

---

7 - جمع زورو وطرزان

والأحلام المبقورة في مِمرغيّة اليوم

في زاوية سنيّ العشر

في «شارع العرب».....

أيها الحسّون! يا روبن هود العزيز

أيها الحسّون! يا صديق الصلوات المُرّة

يا صديقيَ الحسّون!

لا تُغَنِّ في الميوزك ـ هول

أيها الحسّون!يا قريبي

لا تَنَمْ والنّهار

فغداً سيكون يوماً جميلاً

أيها الحسّون! يا أبدع خلق الله

أيها الحسّون!يا موتزارت الصغير

يا صاحب الطّوق الأبيض

أيها الحسّون! حدّثني عن والدتي

أيها الحسّون!

عيناكَ هما مصباح علاء الدّين

فلتشترِ ليَ الجبلَ والخرفانَ متجعّدة الصوف

اشترِ لي، البيتَ الذي يضيء شتاءً

الطريقَ المؤدّي إلى الأدغال وممرِّ خروج التلاميذ

اشترِ لي مئزراً يصعد حتى العنق

نقوداً من أجل التعاونية

تذكرةَ رضاء

اشترِ لي، جُرحاً في ساقي

ثمّ لطخات حبر لجفاف ذاكرتي

الكبرى

أيها الحسُّون! اشترِ لي

الطريق الصّاعد نحو بيت والدتي...

عبر الدروب الضيقة التي بلا ماضٍ

في البيت الذي يستنير

رغم كل الأفكار التي فقدت رشدها

أبعد مما عليّ أن أتعلّمه لكي أحمي نفسي

سوف أمضي لكي أموت في الجزائر

من يحبُّني سوف يعرف كيف يجنّبُني الكلمات

ويحترم الليل

ويحترم خطوي الذي خلّفته على العشب

أصدقائي!

انظروا إلى الجبل، ولتسمحوا لحلمي:

سوف أمضي لكي أموت في الجزائر

واحسرتاه على رؤيتك

قد أكون حلُمتُ: السُّفنُ أشباح

قد أكون عرفتُ المدينةَ التي تحوّلت بفعل انفجار أمس

عبر الجرائد إلى طنين أجراسٍ تُـقْرع

بسُعارٍ جامح اسمه «سيرتا»

أأشكُّ في ذكرى تقول لي عنها الجزائر

بأن رؤاي تكذب عنّي ليس إلاّ

ويقول قلبي، بأن هذا ليس إلاّ وهماً

على ظهر سفينة رحلَــتْ

هل وُلدتُ في المنفى وفي طباعيَ

البحثُ داخل الميترو عن رواقٍ غريبٍ

هل أنا سجين هذا القيد

الذي يجعلنا نقول «أبيض» لمجرّد هطول الثّلج

قلبي سائح في محطّة السّأم

لا أزور إلا الذّكرياتِ الناحبات

نزُلٌ، كل ما في العالم نزلٌ تُفردُ فوقها اللّيل

والجذاذة التي تُمْلأُ هي وصيّةُ الرّحلات

خبِرتُ تحت الجسورِ مُنصتاً للأنهرِ

الحوارَ الجسورَ والأسئلةَ الكئيبة

التي يطرحها ملعونٌ تنقصه الحجّة

بعدالة نومتِه تحت الجسور

هل سأتمكّنُ من رؤية عام جديد بألوان الكرَز

الشارعَ الأبيضَ بحجارة يوم من أيام مايو

ونحو جبل الوحش حين يتكلّمُ الهشيمُ

كلَّ تلك الأحلام الغارقة لنهر مغمضَ العينين

قد أكون حلُمتُ: السُّفنُ أشباح

قد أكون عرفتُ المدينةَ التي تحوّلت بفعل انفجار أمس

عبر الجرائد إلى طنين أجراس تُـقْرع

بسُعارٍ جامح اسمه «سيرتا»

نفاد صبر

حتّامَ ستظلُّ تلك اللحظاتُ المسلوبة من ذاكرتي

الرؤى المبتورة من العوالم التي نعلمُها؟

وحتى متى ستنتظر عيوني المنسوجة في اللّيل الأكحل

مرورَ الشتاء؟

وهذا اللاكتراث

الأثقلُ من حقيبة

حتّامَ سأظل مرتبطاً بخطاي؟

كلّ جسور باريس، كل جسور فنيزيا

احتجزت فرحي

فمن يا تراه سيعيدُ ليَ فرحي؟

حتّامَ سيظل برنسي

شبحاً غريباً

وفي السّموات التي تحكي عن الفوندوم وبوجانسيه *

حتّامَ سيظلّ وادي الرمال

بعيداً عن جسر بيرسيه[8]

حتّامَ ستعيش طريقةُ تقبيل الشيوخ

الذهابَ لرؤية الأقارب واستحسانِ القريبات؟

حتّامَ ستسكنُ السحابَ سحابةٌ بهذا الشُّحوبِ

ويظلٌّ شارع قلبي بقلب قسنطينة؟

تلكَ الجرائدُ تخبرنا

بانتحار السيد دوبون

متسلّقٌ مات عند رابية الـ «مون بلون»

وبفيض نهر اللّوار

حتّامَ ستظلّ كلّ هذه اللاأشياء تقول لي أشياء؟

حتّامَ تلك الرؤى التي تُحني رؤاي؟

8- كل هذه المناطق موجودة في فرنسا، ويقيم هنا مالك مقاربة بينها لكي يمحو كل اختلاف بينهما في تبرئة للطبيعة من أيديولوجيا الإنسان.

نساؤنا بحياءٍ جريء

قد تكون أُمّي

قد يكون قصيداً

حتّامَ سيظلُّ النخيلُ بالصحراء؟

حتّامَ سيظلّ أصدقائي والأسئلة ذاتها:

اغتالوا أخي

والدي بالسّجن

وأنتَ، بماذا تخبرنا كي تتوحّدّ معنا في الشعور؟

اغتالوا أخي

والدي بالسّجن

حتّامَ سيظل ساعي البريد هو القدر؟

حتّامَ الصباحاتُ العجاف التي لا طعم لها

والشّموسُ دوماً في أفول

والثلجُ شديد السّواد

والشطآن تحيلُ دوماً إلى ضفاف أُخَر

والعنصرية تعتمر قبّعة اللّيونة

أو حتى زُرقةَ الدفء؟

حتى متى هذا الملجأ الذي يكون فيه ضيفي هو السجّان...؟

غير أنك سوف ترى

مهزوزاً بالقناعات

حين تقرِّر الشّمس أخذَ

مريديها باليد

سوف ترى الربيعَ، وكذا آخر سحابة

تنسحبان باحتشام منتكستين

سوف ترى البلادَ محاصرةً بأكاليل الورود

والمحاربَ مرتاحاً

سوف ترى الجبل وشارعَ العرب

و زهرة الرمان في الحديقة المحرّرة.

الاستراحة

أنسجُ قصيدةً بخيط الحبّ

معطفَ قوسِ قزحٍ لهذا المرقصِ

سوف نمضي

وسوف يتّشحُ «الندى»

بطعم النهار

أنسجُ «ڤالس» ببيانو من اللّيلج.

أبقيتُ على بندقيتي في عمق ابتسامة

سآتي بعد حين

استبدلتُ بندقيتي بقصبٍ حكّاء.

من القوس إلى القيثارة

أعرفُ مكان زنبقِ الوادي

والحسّونُ صديقي

عاهدته بأن أكون له اللّسان.

مهنتي، هي أن أُعجِب ريح الذات المنهارة

أنشدُ، ويحلو لي أن أمضي في نومي بسلام

بعيداً، لا توجد مهودٌ في المقابر

وأنا أعرف الأنغام الشجِيّة في الملاحم

سوف يخبرونني

أعرف أنهم سوف يخبرونني

عن الكلمات الهائلة

وأمّا أنا، فإن الكلماتِ التي أعرفها، هي بلا ماضٍ

قلنا ذلك مساءً

حين كنّا نشربُ القهوة

سوف يخبرونني

أعلم أنهم سوف يخبرونني

شعبي وثورةُ غضبه

الشعبُ الذي أعرفه

تحتويه الأزاهير

الأزاهير التي عهدتها

فوق جبل شيليا

سوف يخبرونني، أعرف، أعرف بأنهم سوف يخبرونني

بأنّ الزمن لم يعد زمن تروبادور

حسناً!

وأيضاً حسناً

غير أن مُلجِئتي أنا

أسْمَوْها «وريدة»[9] في زاوية من قلبي

9- وريدة، هو الاسم ذاته الذي يتردد في رواية «رصيف الأزهار لن يرد» وقد اتسمت شخصية وريدة في الرواية بالخيانة في الأخير، مما دفع بخالد بن طوبال (الشخصية الرئيسية) إلى الانتحار انتقاماً لوفائه الذي جرّحته تلك الخيانة.

أنا أغنّي

وهذا يروق لي

أعرف بأن للموسيقى كلّ الحقّ، إلاّ أنني صاحب الكلمات

ونغمي يقيل عند جذع شجرة البرتقال...

أغنية
لأجل الجدار وكتفيكِ
والسّمكة الميتة

وحدها السّحلية

في خفّتها كالحلم

كانت تأخذُ مشروبَ الشّمس والقيلولة

وأصابعُها النحيفةُ فوق الحجر

أين كنتَ يا حُبُّ أيامَ جولاتِ صباي

يا صاحبَ المئة زهرة والمئة أغنية؟

آه يا أيتها الغوريلا، يا جارةَ مدرسة البيسُونيير

أين أنت يا أغنيتي التي كانت تطلع من مجرّد قشعريرة؟

قابلتُ هذا المساء

على جدار كتفيكِ، ظلاًّ خفيفاً وسمكةً ميتة

وكان غباراً أبيضَ عند نهاية هذا الطريق

هو الرّملُ الغائبُ لبحرٍ يتراجع

قابلتُ هذا المساء

على جدار كتفيك

سمكةً تتجفّف على ضفاف محيط ذاكرتي

هل ستعودين يا زهرتي البريّة

تسوحين في شعري؟

يوسفياً سوف أهديكِ

سمكةً حمراء والإله الطيّب

فعلى جدار كتفيك

ظلّت قطعةٌ من الشمس معلّقةً

أعرف لِمَ ينتحبُ الصفصاف

ولماذا يفضّل الخريف أن يختبئ

السمكةُ الصغيرةُ ماتت على جدار كتفيكِ

حَجَران غاباً عن موضع القُبلة

في العهد الجميل لزمن الهروب من المدرسة

السّمكةُ الصغيرة الميتة كانت تلميذاً

بوح الدُّلب

جَيبٌ صغيرٌ أزرق ملوّحٌ فوق السُّطوح العتيقة

مسرًى يتسكَّع قريباً من «جاردان»

صورةٌ لكِ

مزّقتُ تلك الصورةَ

في يوم بارد كانت الشمس فيه منتكسة

وكان التزامي الوحيد تجاه أساي

أنْ أَعطَيتُ قلمي

أيتها النبتة البرية..يا صديقتي

علينا أن نبكي السّمكة الميتة

نبتتي..آه يا نبتتي

اليوم ستتزوّجُ

بجدار صغير، عند تجويف كتفيك

اعتقدتُ ذات يوم بأنني عشت من جديد

كنت أعلم بأنّ الفجر بحاجة إلى يوم واحد

فارتميت

كحجر

في

المحيط

قريباً جداً من جدار كتفيك

كانت الأمواج تعود لأجل المدّ الأكبر

وكنتُ أعرف أحياناً بأنّ رؤاك تنير عيونَ القُطرب

حين تخبو رؤاي

أكتب بحروف يمكن للسّحلية أن تعرفها

متمرّغاً في وجل شمس تغيب

كلمات بلا موهبة، كلمات بلا ماض عتيق

تلك القبلات السريّة التي حرّكت فمي

أنا السّمكة الميتة على جدار كتفيك

والتي تتكلّم عنك

وتَغرَقُ في قدري

أيكس أون بروڤانس، 12 أوت - أغسطس 1957

كنت أتقنُ الضحك آنذاك

والمشيَ صاحياً على حلمٍ واقف

كان الواقع هلوعاً

فقد عثرتُ على ما هو أجمل منه:

أنت

اليوم أقول في نفسي

كما نعلّق على حادث ما:

كان أسوأ

مما تصوّرنا...

قلبي شاطئ

أتعبته الرمال

أتعبته النوارس والصُّخور الكحلاء

يا قلبي..لقد غادَرَنا الصيفُ

والعشّاقُ لا يحبّون الكلماتِ التي استُنفِذَت في الغناء

الجدار، لم يعد يحتفظ بجدار كتفيكِ

الشّمسُ اصفرّت ككتاب ذبُلَ

يخبرونني أن مداخل الخمارات

في باريس

تدندن الشرود...

هذه الكرة الحمراء

فقط هذه الكرة

فقط

التي يحاول بصري الإبقاء عليها...

تعرف بابَ الليلِ والنهرَ المسرور

ينسابُ الصّبرُ في قلب الماضي

ويشعر الفردُ بأن الشّمس على المرج البردان

تشتاق إلى الشمس التي انمَحت

بلغتُ العشرين هذا المساء، وبالكاد أصدّق

أنشدُ عن ظهر قلب ما حفِظته أيامَ كان الكون بمحفظتي

ما نسيتُ شيّاً، وما فهمت شيّاً

وحدها فكرتي الثابتة عن نبع السِّيَـــر

يَـدُكِ لم تكن سوى فزّاعةِ وهمٍ

تعريةً لقلبي في ساعة العشق

ولا ينقص إلاّ مدرستي الابتدائية

مأخوذٌ أنا، لكي أقول إلى مالا نهاية

تلك الأغنية الواهنة التي سرَقوا منها قوافيها

لم يتبقَّ هذا المساء إلاّ مقطعٌ من لازمة

دورٌ متقنٌ، وتمثيليةٌ حزينة...

أحلمُ في زمن لا يكتمل

بالمطعم، يوجدُ مصباحٌ

دائمُ الإنارة

بالمدينةِ التي انتقت عندها الحجرةُ، مرقَد شيخوختها

لم يعد هناك إلا خيطُ دخان

وذكرى لا تنكسِر

هذا الزمن المجرم يعود إلى موقع الجريمة

يلْقُم من الكلمات التي كنتُ قد تلفّظت بها

يمنحُني اسماً، فأصنَعُ منه قافية

حين أتحدّثُ في الحاضِر، يغنّي الصّدى في الماضي

أحلمُ في الماضي

بالمطعمِ يظلّ المصباحُ

دائمَ الإنارة

ومفرشان ينتظران

قرب باقةِ زهر قد ذبُلت...

مشَيتُ في فزع الطرقاتِ الملتبسة

منَحْتِـني الكلماتِ

بيتاً

موقِدَها

والعصفورَ الأقلّ جمالاً في سماء الجار

قريةً تحتاطُ من هموم المحاصيل

منحْتِني الصيفَ

الصيفَ الذي تَعِبَ من أن يتجفَّف تحت الشّمس

روايةً لأجل الحبّ

لقلقاً

حلزُوناً

منحتِني- خاصّة- الطريقَةَ المُثْلى لكي أومن بنفسي

لكي أنصِتَ هذا المساءِ إلى نزيف الإنسان ببيتي

آه يا حبيبتي، هل دريتِ بموت أصدقائي

بخلوّ الخرفان من ناي الرُّعاة

حبيبتي، هل أخبرتُــك بأسماء كامل إخوتي

بلقب الوردة

التي اغتالوها...

منحتِني الشتاء الذي يمنحنا بيوتاً مضمونة

ساعديك

حنوّ الجُدران

ومعجزةَ المطر...

قلتُها على الحيطان التي يحميها النّدم

على الرّمالِ النائمة على توقيت الحصون

وعلى الوردة السوداء، على صدر الثلوج

قلتُها عبر النّاي وعبر الفلامينكو

للّيل نبوغُ الليالي التي تغيبُ عنها النجوم

لأيام الخميس الضائعة في نومةِ الألعاب

للرسّام الذي يعجزُ عن تمرير وحدة مشاعره

بين حياته ومماته

للحبّ نبوغُ اليد التي تعبت

من قولِ صحراءِ الصّمت للورق الأبيض

نبوغ الأزاهير، وحين يمرُّ الربيع

يصبح للحبّ نبوغُ في قلبِ الذّكرى

للحبّ نبوغُ، فقد رأيتُ هذا المساء أيضاً

الشارعَ يتنكّرُ في رومانسية ذهبية

لأن النبوغ وحده، هو الذي علينا أن نعلمه لكي نعلم

بأن الوقتَ دائمَ الزُّرقة في السّاعةِ المقدّسة

وحدَه النّبوغ هو الذي يلزمُ السهمَ الهادئ

يدَ الإنسانِ الممتدّة للإله الطيّب

فكم يلزم من نبوغ لأجل بلوغِ الهدف

وملاقاةِ السّماء برؤى معلّقة في لِحاظِك

لن أتمكّن من الشكّ في الكرز

من الشكّ في اللّيلجِ

فلتمنحوني قصَباً، سأعُدُّ سرعةَ الرّيح

وحين يحلُّ الشتاءُ، ستكونين هنا

نَحـيبُك، مائيَ المقدّس

ويدُك التي تقول بإشارات للإتّباع

حبُّك يا صغيرتي

كيف أعيشُ وأتبعُ مائيَ المقدّس

أسطورتي المنسوجةِ بملاحم اليوميّ

إِقْـداميَ العظيم وضعف نغمتي

كنت أتعلّم أسماء الله الحسنى

عرقَ الظهيرة وجاذبيةَ الخُبزِ

والخشوعَ الذي علينا به تجاه لحظات الصّمت

حين انفلَـقَت الأغنيةُ الخصبة

كانت الضواحي تجثو عند ركبتيكِ

كنت أجثو عند ركبتيكِ

أقبّلُ ركبتيكِ

آثارَ خطاك

في طريق الصنوبر

كنت أقبّلُها.

كنتِ أرضيَ المقدّسة لكلّ حدائق دُنياي

كان المساءُ امتداداً لما يحضّره النهار

كنتِ حسناءَ، وكنتُ عظيماً

أعظم أيضاً من لقلقٍ

أعظم من قُبَـلِنا عند طريق غابة الفجر

كنتِ تعرفين كل لحظاتي

وكنتُ أتعلَّم الحسابَ بعدِّ تلك الحُجج

قدِمتُ لأجل أن أراكَ يا إلهي

أنا النبتةُ البائسَةُ

فلتبقِ على اعتقادي في فضيلة الكلمات

إذ ليس لي إلا كلماتٍ أحفر بها النّورَ

كلماتٍ أقتسم بها الحبّ مع أخوتي

قدِمتُ لكي أؤكّد لك

أكتشفُ اليوم ما تعرفه الشجرةُ جيداً

ما يعرفه حجرٌ جيداً

ما عرفْـتُه طفلاً

أصرّحُ أمامكَ بعيداً عن حُنْق المدائن

الحلُّ دوماً يتيم

ما لم يكن حلاّ إلهياً

أصرّح أمامك بعيداً عن الجُمَل الثائرة

أين يغيب فعلُ أمرٍ يقول:

عليكَ بأن تحبّ

مستغرباً أحبّك، معرفتي بالأخذِ مقابل

قليل من العطاء

قدِمتُ لكي أقابلَكَ يا إلهي

أنا، النبتةُ البائسة

نقد ذاتي

غير أنه كان من المحتمل

أن تكون القَرعةُ

أقلَّ بدانةً

من هفوةِ حزب

في باطنِ مشكلةٍ قديمة

اختبأ سنجابٌ وفكرَتَــه

يتغذَّيان على النّظريّاتِ

طيلة النّهار

قريباً جدّاً من هناك، كان لقلقٌ

يستجمع القناعات

وهو يحكي عبر قيثارته

المنطقَ الكاملَ للنّغم المفكّك

في باطنِ مشكلة قديمة

بندُقةٌ ضجِرة...

الحمار الصغير

إلى صافية ونادية

الحمارُ الصغير

ليس غبياً إلى هذا الحدّ

هو لا يحبّ الخرطال

يحبّ الحلوى

يلوّحُ برأسه

وحين يصرخ كوكوريكو

أنا على علمٍ تامّ بأنّه حمار

يكفي أن يمتدّ القطّ على ظلي

في بيكين

حتى تمارسَ الصينُ التي أبحثُ عنها

العَدَّ على أصابعي

غير أن بيكين بعيدةٌ

والقمر عال

في ملجأ عمري

على نهج ميرابو[10]

سأغدو جميلاً

كشجرة دلب.

10- اسم شارع كبير في مدينة إيكس أون بروڤانس بفرنسا، وهي المدينة التي درس فيها مالك حداد الحقوق، ولم يتمّ دراسته بعد التحاقه بصفوف العمل السياسي إبان الثورة.

باريس 59

رأيتُ الزمن الأزرق الذي يرسم صمتاً

على الفاكهة المشدوهة لكونها بعيدة عن الحديقة

يكفي لأجل هذا، سُوق ضاحية

شمس ظهيرة أقلّ غرابة

فعل الضحك وحده، موسيقى شاذّة

عند المساء، لن أقصد الشارع اللاتيني

لملاقاة بودلير واقتناء البطاطا المقلية

وتعقّبِ بزوغ النهار على (الجسر الجديد)[11]

السّجن الأزرق الذي يبكي عند نحيب عرائس البحر

بحّار ومنتصف الليل، تلك الأيادي التي ترتفع إلى الحائط

انتفى موعدي المسائي مع فرلين

11- اسم مكان.

باريس لم تعد باريس الشغوفة بريامور[12]

إنه موسم صيد الأعين السوداء[13]، فلنرم الشِّبَّاك

السّجن الأزرق الذي يبكي عند نحيب عرائس البحر

يقود الخوف الرقص، في المرقص البليد

انتفى موعدي المسائي مع فرلين

12- René-Antoine Ferchault de Réaumur: عالم فيزياء وطبيعة فرنسي كبير - 1575/1683.

13- إشارة إلى الاضطهاد الذي انتهجته فرنسا ضدّ المهاجرين الجزائريين والأفارقة على أراضيها.

سأداوم الحراسة هذا المساء

سأداوم في هذا المخفر الذي

ينتظر كلمة المرور عند مدخل حلمي

أم تراه ندمٌ، ذلك الذي يكدّسه الخريفُ

نتائجَ هزيلةٍ سوف يمحوها الغَــدُ

سأداوم حراسة أفكاريَ هذا المساء

وسوف أضبطُها وأنا أَنصتُ إلى السّاعات التي

تدقُّ لأجل التنبيه على قرصٍ أجوف

على نغم صحراء تبكي غزالتُها

سأداوم الحراسَةَ هذا المساء على مخزن البارود

أيها النّدم الأرعَن الذي ظننتُ خُفوته

حينَ تأكّدَ الماضي من عُزلتي خرجَ عليّ من قبره

ورافقني حتى طلوعِ الصباح

سأداوم الحراسة هذا المساء على مدخل الخيمياء

على الصدّارةِ الشديدة الزُّرقة التي تحيك السّماء

وطريقةِ الغناء التي تمتلكها كلماتُ أمّي

والنحلةِ المندهشة ممن يأخذ عسلها

سأداوم الحراسَة هذا المساء مُنصتاً إلى حلمٍ

إلى سفينةٍ تتراقص في عيون الأساطير

غير أن النورسَ الأزرق وهو يحطّ على شاطئ الرّمل

لم يعد سوى هباءٍ في مغرق الرماد

سأداوم الحراسة هذا المساء على ممرّ القطار الذي

يزفر صرخة فقط وهو يواصل سبيله نحو العميق

وحين اخترقتُ الأرصفة ظللتُ احتفظ في قبضتي

بتلك القبلة التي رمَتها عليّ نظرةٌ عابرة

سأداوم الحراسةَ هذا المساء وكلابُ الدوّار

تركت في أحداقيَ سهولاً مذهلةً

ليس مبكّراً، ليس متأخّراً أبداً

لأجلِ عيونه نظرة السهّاد

سأداوم الحراسةَ هذا المساء وهاأنذا أسمع وادي الرمال

يردّد عليَّ مئة مرةٍ، بأن نسّاجي قوسَ قزحٍ المسائيينَ

على صواب مئة مرّة

أولئك الذين يدفعون ثمن الخبزِ وهم من يصنعُ الحصاد

سأداوم الحراسةَ هذا المساء على اللغاتِ الميتة

على كلماتٍ كنتُ أتقنها حينَ كنتُ راعياً

وأنا لم أكذب إذا ما قلت بأنه، وعلى بابي

كان هذا أوّلُ القارعين

أصحابي، يا لائحة مطالبي الطويلة

لا تعتقدوا، خاصة، بأنهم لا يعيرون اهتماماً بالبحر

وبالمسّرات التي تحكي عن الهروباتِ الصغيرة

بالزهرة، بقطعة الحلوى

بخطيبة الترمُّل

بالطفل الذي يركضُ خلف ظلّه

لا تعتقدوا، خاصة، بأنهم لا يعيرون اهتماماً بالفرندول

بالزحافة التي ترسم عبورها على الطرقاتِ الباردة

بالأسئلةِ العميقة التي تطرحها الغزلانُ

لحظة مفارقتِها الحياة

لا تعتقدوا، خاصة، بأنّ عشقهُم الوحيدُ هو الحرب

كانوا يحسنون مداعبة أحصنة الأساطير...

ذات يوم كانت الجزائر هي من يلعب دور مسرحية

يُحسنُ اليوم لعِبَها جموع مسرحيين لا يتقنون دور العجوز المضحك

رأيت مشاهدَ حلمٍ حولَـتْهُ العهودُ

إلى أغنيةٍ: ميّتُ المحكومِ عليهم

بعيداً عن الضفادع التي كانت تتمتم كلماتِ الحبّ

وتعطي دروساً لسنواتنا اليافعة

كُنّا فقط بعض الأفراد الذين يعرفون بأن اليومَ

لكي يتحوّلَ إلى صباحٍ، كان عليه أن يُضحّي بأيامه

كنّا فقط بعض الأفراد الذين يتكلّمون عن وطنٍ

خالٍ من الصِّيَغ التي تأسنُ في جرائدِ اللّغو

كنا فقط بعض الأفراد الذين يتكلّمون عن جزائرَ

دون أن نضطر إلى سكب دموع في جفّافٍ لا يرتوي.

بعض العشرينيين تقَعُ العاصمةُ عندَهم

قريباً من الركن الذي تُصنع فيه الأغاني

والبعض الآخر يعرفُ بأنّ الحكم بالإعدام

يتأرجحُ في مكان ما قريباً من جباهنا

كنّا فقط بعض الأفراد الذين ندّدوا بخطأ

عصفور يصمت، بخطأ عقالٍ ينام

كُنّا فقط بعض الأفراد الذين صرخوا بأن الشّرَف

هنا أو هناك، يَسْلم بأغلى الأثمان

كنّا فقط بعض الأفراد الذين كان بإمكانهم أن يتنبّأوا بأن الرّعد

الذي يطلع رغماً عنّا هباء

كنا فقط بعض الأفراد الذين كان بإمكانهم أن يفجّروا الغيوم

كنا بعض الأفراد، سماءً تولَدُ قبل الأوان

كنّا بعض الأفراد الذين يشكّكون في كلمات

أولئك الذين يخشَون إمرة الشّمس

نحن فقط بعض أفراد يتغنّون بالأشياء المجنونة

ضمن مرمى رصاص الأغاني الخارجة عن القانون

إذا ما أردتُ الحديث ستغضُّون الطّرْف

وتحصون أنتم ذاتكم الآذانَ الشريكة

وعبر الطرائق المشينة تنتزعون الاعترافات

الشبيهة بالحقيقة في مخافِر الشّرطة

وعليه، أريدُ أنا الحديث

سوف أتكلَّم شامخاً

جالساً أو راقداً

دون محامٍ غير الشمس التي تطلع

خلفَ القضبان التي تطيرُ عبرها الأغاني

سوف أتكلَّم شامخاً، وقد فضّلتُ أن يكون قوامي

عصا يرفرف عليها العلَم

ويختفي في عمق الأدغال الحكيمة

لكي نُليِّن الحديد، أريد للجوّ أن يسخن

سوف أتكلّمُ شامخاً

راقداً

أو جالساً بشكل جيّد

سأقول الجزائرَ، جديدَ العالم

سأقول الحريّةَ، فوق الاستسلام

قصيدتي، جاءت من موضعٍ آخرَ غير القريحة

سأقول حرية، سأقول سنحرّر، سأقول سأقول

إنني لا أكترث بكم، سوف نُحرِّر!

***

لا شيء يشبه الأمَل في العيون المكسورة

ولكثرة القتل، أعلمُ أنّا سننتهي بأن نموت

ستأتي وردةٌ للتنديد بالشوك

إنّه عهد الصعاليك المرتسمة على الجباه التي سوف تشحَب

أستعيد قوامي حين أعرفُ كيف أرفُض

قبلةً تأتيني من الأسفل البعيد.

اليوم، يمارسون القتلَ، لذلك أُدْعَى «غضب»

فلتنظري يا حدائقي، يا حبيبة السّلام

وبما أنهم يمضون نحو القتل، فهذا دليلٌ على أنهم سيقتلونني

غير أنني سوف أتغنّى

بالفتيان الضاحكين في العيون السُّود لوطني

كان اسمهم «إخوتي»

وأنا أرغب بهذه التسميات لكي أحبّ الموسيقى

أؤكد بأنني قلت زعتر

ثم قلت: هل تتذكّر؟

أؤكّد بأنني قلت صاحبي وأنا أعتنق الفراغ

اسمهم إخوتي

هو اسمٌ كغيره من الأسماء

كان إضافة لأنه قرّر أن

يشبه الصُّقور

وأن يأخذ الأغاني في فسحة عبر الأرض

أين تنام القيثارة وسط حقولِ القمح؟

قدِمَت القيثارة لكي تحكي لي عن «إخوتي»

عن صاحبي عن رفيقي

كان اسماهما «غضبٌ» بعيون عاشقة

وأنا، كذبتُ طويلاً، وأنا أتحدّث عن القنبلة:

نحن قلّةٌ ظللنا على قيد الحياة

ومن الآن فصاعداً سوف أقول كلَّ شيء:

صاحبي، أصحابي

يا لائحة مطالبي الطويلة

أولئك الذين يقتاتون نهاراً

حين كنت أحيا عبر الطرقات الزرقاء

صاحبي، أصحابي

أصحاب الإيماءات الرهيفة

تحبُّون كثيراً المدينة التي تتلألأ شوارعُها

أخبَروني عنكم كي يثيروا غيرتي

كي أُصاب بالسأم

حيث لا تكونون...

لديّ من الأصدقاء كثيراً حتى إن أصابعي تهفو

حتى إن رؤاي تَعاتِبُ نفسها لأنها لا تمتلك غير عينين اثنتين

حتى إن قلبي يئنُّ عوض أن يخفق

وأنا أتألّم

حين يكونون بأفضل حال.

كان لديّ من الأصحاب حتى إن أسماءهم تخبو

لأجل إعطاء الكلمة لشاعر ما

أصحابٌ تملؤهم الورود، وهم يقولون غداً

مثلما أقول أنا اليوم:

ماذا لو صنعنا صروحاً

كان لدي من الأصحاب الذين يُـتقِنون معرفتهم بندرومة[14]

تلك المدينة التي استحالت إلى العلا وسط الأشجار العاتيات

أصحابي النائمون في لحظة الفجر

أسماؤهم هي مهمّتي التي أحفرها على الرُّخام

وبعد ذلك سوف تستحيل الصروح إلى جلاميد...

14- مدينة في الغرب الجزائري.

ما كان لديّ أصدقاء لم يتحوّلوا إلى أبطال

منذ عهدتُ نفسي قديماً وأنا أختَلقُ الرومانسيات

كانوا يقولون لي: مالكُ، غداً سيكون جميلاً

كلُّ أصدقائي كانوا يتقنون حكمة الريح.

الطّريقُ ليس وحيداً

أنادي على أصحابي

رجالٌ أشدّاء وطيّبون

أغنيةُ اليوم تُدعى أصحابي

الطريق ليس وحيداً

إنه ميقات أخطائي

كلُّ سبلي أضاعت الشمال

وها هو ذا الرّاعي

يعيد للبندقية

روحها كنايٍ وبرتقالة...

سيكون مكتوباً

أيتها اليمامة التي على السطح

لماذا

أنت طير؟

سيخلد صوتي للراحة

سأكسِب عاداتٍ جديدة

عليّ بالحلم.

سينتهي بأن يجيء

ذلك الربيع المتوجِّسُ لأجل شهيدِ الوردة

سينتهي بأن يجيئنا

ذاك الصباحُ...صباحُ الجرائد المنوّمَة ذات الخمسة أعمدة

موهوبةٌ هي تلك الأيادي المجتمعة

فلتنضمّ إلى بعضها تلك الصلواتُ

وليذهب الأموات إلى السّلام

سينتهي بأن يجيء

ذلك الانشداهُ الهلوع الذي يرافق موسيقى الجنائز

سماءُ موطني المنذورةِ لعصافير أُخَر

ستشتعلُ الأفراح حين تخبو النّار

حريةُ الاعتقاد في خطوط اليَدِ

إرادةُ الفلاحين التي تشقُّ لنا أخاديدَ

سينتهي بأن يجيئنا

ذاك الزمن الذي سيقول: أشعُر بالحرية

سوف أجلب للغدِ دفْءَ الماضي

سينتهي بأن تجيئنا

تلك الغِنائياتُ التي أُبدعت في الجبال العاليات

سينتهي بأن يصبح عصفوراً

ذاك الحبُّ المرتسمُ لأجل

حطام السّماء العظيم

ذاك الحبُّ المسيّسُ حتى آخر القناعات

التجاعيدُ والشّوارع

الأسلاك الشائكة على الرؤى

ذلك الذي يتأرّض[15]

ذاك الذي يتمّ صرعه

في عيون والدتي

في قلب القصبة

ذاك الحبُّ المسيَّسُ كقبلة امرأة

السّعادة يا أصدقائي، علمٌ دقيق

ونحن على حقّ

أيُّها اللاجئون

يا بؤبؤَ العين

15- المعنى اللفظي للكلمة، يعني: السكوت Silence، ولكن المعنى المكتوب يحيل إلى: الأرض Terre.

أعلمُ:

الإيقاعُ الأخير منتقى من الحياة

بقي لنا فقط

زمنٌ للقَصص...

جلاميدُ

إنني متعاطفٌ!

تعريةُ السُّباب واللااكتراث

وأمّا أنتم، فها أنتم ذا يتامى الموسيقى

تعلمون ذلك:

لا تطرقوا بشدّة

لم أعد أقيمُ هنا.

لا زلتُ على إيمان كما مضى، بأن الحبّ الذي يتلهّى

يستدرج ذاك الذي يدافع عنه نحو الخطأ

ولأجل هذا تحديداً، فإنني أقاطع قافيتي

هل

يكفي العاج

لصناعة فيل؟....

***

ولأجل القليل، اختارت القبلةُ على فمي

أن تضعَ نقطة نهاية على الأنغام المجهَضة

على الشّمس التي عُثِر عليها في هذه الليلة الآفلة

كي نتذكّر طويلاً كيف تسنّى ليَ الغناء.

نحتاج إلى القليل كي نعطي موسيقى

كي نوقِظ الجميلة النائمة داخل قلب غافل

كي يستحيل صباحٌ مكسورٌ إلى فجر غنائي

وكي تلمع نجمةٌ في عيون الزجاج البراقة.

أعاشرُ كلماتٍ أبداً لا تتكلّم

بعضُها قالت الكثير، والأخرى حكيمة

أغلقتْ على نفسها في كتبي الملعونة

منتظرةً صمّاء، ما سيأتي بعدها في الصفحات اللاّحقة

البعضُ ناضلوا وِسْعَ فضاءٍ وميض

وناموا مثل كلبٍ في حجرته

أعرف واحداً منهم، يا إلهي، عزيزٌ على قلبي

اعتقدت طويلاً بأن اسمه في المقدّمة

بيد أنه برؤيتهم، أبدو بمثابة ابتسامتهم التي

تقودهم إلى الربيع الذي أسموه هم أنفسهم

حين ينصتون إلى حديثي سيعلمون جيداً ماذا عليهم قوله

ويستعيدون الإيقاع للنغمات التي يدندنونها

من يعلم، قد يعودون إلى الخدمة

ويعيدون الوصل مع الفعل « أحَبَّ»

هل عليّ أن أترجّى، أن أحتجّ على هؤلاء

الكسالى الذين تضرِّجهم تعاريفهم

كانوا قد قاموا بحملة في أرجاء القلب الأربعة

والربيع وشى بميموزا فقيرة

ذلك الذي لم يدخل العشرين إلا للذهاب بعيداً

ميتاً في زهرة العمر عند مداخل سطيف

لعبة كلمات، لعبة أيادٍ قطفت القنبلة

الوادي يتذكّر اسم المقراني

والكلمات المستنفرة غدت ضوضاء

وحسّونَ عشقٍ في إجازة ليلية

كانت لديهم طريقة في البحث عن النور

على الحيطان، كانوا يعلّمون أفق الكواسر

والنغمات تسافر كموسيقى غريبة

والكلمات، كانت محمّلة بهموم الغضب والعشق

عرفتُ كثيراً ممن هربوا من الأساطير

لم يكونوا على توافق مع الواقع

تعطّروا للأبد بالنبات البريّ

وعشّشوا في مكان ما بقوس قزح

أحياناً، كان لا بدّ من إيجادِ مكانٍ ما في جريدة

كان لا بدّ من التزحلق كَوننا غيرَ مدعوّين

ومِن تعلّم السّباحة للوصول إلى السطح

والكلمات التروبادور لم تكن تُحسن غير الغناء

فقدتُ كثيراً في عهود الباروك

أين تضيع دوماً بعضُ تلكَ الأغاني

التي يمكن للريح أن تمرّرَها عبر أحلامي الممزّقة

وعبر ثقوبه، يستحيل القصب إلى نايٍ وقشعريرة؟

من أحببتُه، أضاء الغاباتِ

وحين لم يدخل النهارُ، تسرّب هو إلى غرفتي

و حين تحوّلت ساحة ميرابو إلى غابة نخيل

سمِعتْ صديقي وهو يمهّدُ لنوڤمبر

بعدها، حَلّ اسم صخرة النوارس

أبداً لم أعثر على طريقةٍ لكتابة قصيدة

غير أنني، أعتقد جازماً بأن تلك الأغنيةِ الصغيرة

المطرّزة على خيط أبيض، كانت تحكي عن منابع

لأجل العثور على ذلك الذي غادر التاريخ

أخذتُ حدوديَ المثلى في الصحراء

ولأجل تأمُّلي، كان لا بدّ من تلك المرآة

الصحاري أغلقت حولي آفاقها

كل قبر، هو كلمة في المقبرة الكبيرة

وجملتي يوجهها ما لم نقُله

خوفاً من إرباك الغبار الذي يثيره

طريقُ الأمل الملعون من حولي

تلك الكلماتُ التي ناضلت في قلب الذكريات

هل سنرقبها فجأة تغيِّرُ مسار الرومانسية؟

انتفى الزمنُ، أعتقد بأنه آن ميقات النوم

وقافيتي تمدُّ بيديها لآخر فرصة

بعض التجاعيد، ربما موضعَ الوجهات

لا يهمُّني بعد كل هذا إن قَدِمَت

يعجبني الخارجُ أقلَّ من الباطن العتيق

الذي روّده الحبّ من قبلُ

أراهم يعرجون مستغربين عيشتهم

جفنُ الكلماتِ والبابُ الذي ينفتح

والعادةُ المُعِينَة التي تنسيهم الصقيعَ الذي

يتحوّل إلى ندى في السماء المكْتَـــشَفة

متعبٌ لسيري على طريق بلا طعم

يغازلون سأمَ الأيام التي تحتضر

أعثر على كلمات اليوم، بأقلّ سرعة

جملةً مرهقة لشدة دورانها حول نفسها

أُعيدُ تمريرهم على رؤاي، ينقص بعضٌ منهم

صادِقةٌ هي هذه الوصفة، أخيرهُم غادرَ

ما نسميه درباً لن يكون غداً سوى

محطّة معلّقة للبياضات التي نملؤها

***

وعليه، فقد عادت الكلمات الحاجّة

تلك التي كنتُ أخلقها في زمن اليوسفي

إلاّ أن قمّة الجسد، وقمّة الدّم اليوم

لم تسمح للكلمات بأن تنشد على نغم المندول

أنتِ قبالتي يا أيتها النغمة التي أسميتُها آنفاً

وقريباً منّي عيونها التي تمضي إلى عيوني

تقلبُ حطام الخرافات الواهمة

وتأمر رؤاي بأن تنظر لأجل اثنين

قبالتي قيثارةُ الصَّمت المتبدّد

روايةُ أُعيدَ طلاؤها من جديد وفمي فرحان

انظروا، إنني أقول تلك الكلمات التي سُرِقت منّي

مستغرباً كونَ المطر بعيونٍ عاشقة

مستغرباً، مثل شجرة عند طرف غابة الأنوار

منشدهاً بحنوٍّ بذاك النهار الطّالع

عند المفترق، استحال الطريق إلى فرجة

وأنا أعرف ما أقوله، حين أقول: هذا حسنٌ

أعرف ما أقول، حين أحِنُّ إلى الأرضِ

الأرضِ التي تقود فيها أغنيتي الزيتونات إلى أن تتزيَّن

أعرف ما أقول حين يربط سعار الدبابات

قيثارتي إلى قوسِ المحارب

في تلك الأوقات، تتخلّى النّهارات عن مذاق النبات البريّ

وتستحيل الليالي المزعجة إلى ديباجة

عند النغمة التي ننتظر

بقي لنا أن نعدّل من طريقة الأنوار

بقي لنا أن نعيد حساب القصب الذي لا يزال ناياً

وأن نعود إلى ميقاتنا الصحيح في زمن الكرز.

في هذه الأوقات، لا يُجَمِّلُ حبّي كلماتِه

ولا يتقن سوى قول:

الصمود حتى النهار.

عليها أن تصير بيرقاً، كي تحكي قطعةُ القماشِ

لأبنائي صدق والدهم

حين استلهمَ حكمته من الريح الذي يَشفعُ للشّراع

وعلّم حدود الأفق المعروف بخطّ

على تلك الكلمات التي ندندنها أن تكون من حبّ

فلكي يطلَع النشيد لا بدّ من الضوضاء

ربيع كلّ الأزمان ابتدَأ من الخريف

ولكي يغنّي النّايُ، كان لا بدَّ لنا من الريح

كنت لأقول بأن لوالدتي عيون التنهيدة

وقلت حرية، قلت رَفَاهية

حتى إن النرجسَ يخجل في جنائن الشهداء

ويستحيل إلى شقيق النُّعمان، وينزف على غصنه

كنت لأتغنى بتلك الكلمات التي تتشظّى من القنبلة

وحين كان خافقي ينبض، كان هذا عملية فدائية

تغنَّيت بحبّي، تغنَّيت برفيقي

على مقام قيثارة من بلاد لوركا

كان يلزمنا بعض الرّيح، بعض الريح العاقلة
الموسيقى عثرت على الأوركسترا التي تُناسبها
ولأجل هذا البيت، البيتِ القابل للمبيت
السّطْحُ بلا معنى إلاّ إذا صدقت سطوح الجيران

من بين أصدقائي الذين يجعلونني
أُدَندِنُ على نغمة قلبي عدْوَ ملحمةٍ
أصدقاء يسامحونني اليوم
إذا ما فضّلتُ العودَ على نصل السّيف

يسامِحُني، أولائك الصاعدون في الماضي
ويتركونني أنشدُ زمنَ التغني بضوء- القمر
قشَّ ندى البحر الذي جمعتُهُ
كي أنسج أكاليل الغار على شعر سمرائي

كنت لأقول حبي، كنت لأقول رفيقي

تنقص الفلاح لفظةٌ

ولذلك تحوّلتُ أنا إلى قنبلة

وبكُمٍّ قصير صنعتِ الوردة «فلاقاً»(16)

وعليه فإنني تقدّمتُ في السنّ، وعليه، عليّ أن أثبت جدارتي

حقِّي في النغمة، بما أنني أُحسِنُ الغناء

ولشدة تكرار نفسي، سوف أنتهي بأن أعثرَ من جديد

على نغم رأيته من قبل...نغم كان بالجزائر

أعتقد جازماً بأنني قلت ما كان يجب قوله

أعلى من الجبل، لا يمكن لأي نغم أن يمضي

للقنبلة وقتها، ولكنّ أوقاتَ الكرز

تلك التي أحبّذُها، لا زالت بعد هي هذه الأوقات

اليوم عثرت بمعجمي

على كلمات أسِنَت دون أن ترى النهار

16- الفلاق، أو الفلاقة: الاسم الذي أطلقته فرنسا على الجزائريين من واضعي القنابل. واشتهر هذا الاسم أيام «معركة الجزائر».

كلماتٍ تنقذ نفسها من الحروب

وهي نفسها فيلق الشّرف وبسالتي الوحيدة.

الأصفار تدور حول نفسها

تفصلني اللُّغة الفرنسية عن موطني، أكثر مما يفعله بيَ البحر الأبيض المتوسّط،. وبمجرّد أن أَهمَّ بالكتابة بالعربية، يبزغ حاجزٌ رغماً عنّي بيني وبين قُرّائي: الأميّة.

أقاربي الذين يسكنون الجبَل المعلّق، لم يَحُلُّوا لغزَ تَذكَارِكَ، يا كاتب ياسين: «نجمة». عجائزُ «دار السّبيطار»، لم يتمكّنوا من أن يتعرّفوا على أنفسهم في «دارك الكبيرة»، يا عزيزي، يا نسّاجَ اليومِيِّ الملعون، محمّد ديب. من تمكّن من أن يقرأ «زلزال» «كريا»، فَي شوارع البليدة، حين تخلّوا من الورود؟ غير أن الموسيقى ستعثر على الجوق الملائم. مارسيل موسى، مالك واري، فرعون، سيناك، مْعَمري، جول روا، عَمْروش، صديقي روجيه كوريل، روبليه، يمكنني أن أسرد على مسامعكم، وعلى حسابكم، كلماتِ متحدّث باسم «فرنسا- الحرّة»، وإخباركم بكل احترام، وبكلّ محبّة: الجزائر تقدّم لكم أسلحةً لعُزْلَتِكُم.

***

أُحَيّيكم، يا أيتام القرّاءَ الحقيقيين، أنتم، يا أيها الممثّلون النُّبلاء، يا أيها المآسي المنفردة. لقد جعلتموني أفقَهُ العبارةَ «تأمّلٌ في موعظة الصحراء»؛ بيد أنّني، وفيما وراء كآبتي، أعلمُ أنَّ النّداء الداخلي

للصحاري، هو إنجاب التأمُّلاتِ الواسعةِ والغِزْلان.

ستنتهي الحرب الآن. سوف تخبو البنادق، وأنا، أريد أن أؤمن بأن بارودها سيضيء نيرانَ المخيّمَات. سوف تصمتُ البنادقُ، وتتحوّلُ الكلماتُ المجنّدة إلى سِرِنادَا وحسَاسين صبابَةٍ في إجازة ليلية. سوف تخبو البنادقُ، لكنّ الأقلام أبداً لن تخبو. وها هي ذي نبوءة «سانت ايكزوبيري» تتحقّق: «برجٌ للإنجاز...». سوف يأخذ الحبر مكانَ الـــــدمِ.

***

سوف نهجُرُ المنفى. سوف تستَعيدُ النباتاتُ المقتلَعةُ حدائقَها. وفي البيت الذي سوف نرتّبُه ونعيدُ ترتيبَه، سيكون لكلّ فردٍ فينا، كلٌّ حسب تفانيه في خدمة الآخر، مكان له. سوف نزور البقاعَ المهجورةَ، النيرانَ والجنّاتِ التي حُرِمنا منها، تلك الأماكنُ العاليةُ في ذاكرتي وخافقي، والتي تبرّرُ حنيننا.

قذفَ بنا عشقُ الجزائر، في زوغان التشتُّت. لم نهرُبْ من المأساة، لأنّا نحمِلُها فينا، لأنّا سوف نأخذُها معَنَا أينما ولّينا وجوهنا، لأن أشعارنا، ورواياتنا سوف تُسهِمُ في التعريف بها، فقد أكّدَتْ لي شهاداتٌ حامية، بأن تلك الرّواياتِ وتلك الأشعارِ، لطالما حافَظَتْ على الأمل لدى أولئك الذين لم ينقصهم الأمل طبعاً، إلاّ أنهم ازدادوا إيماناً به حالَما عثروا في سنونوّاتهم على سببٍ كاف للاعتقاد بالربيع. أفكّرُ في تلكَ الكتبِ التي أرسِلَت من الزّنزاناتِ، في أولائك الرُّسلِ القادمين من الجزائر، من فرنسا، من أوروبا، تلك الكتب، وتلك الرسائل التي لطالما حملَتْ لنا

التباشيرَ وكانت تذاكرَ رضا لنا كتلاميذ وكدروس.

تلك الكتب وتلك الرسائل التي لطالما كانت بمثابة النصائح والحاجيات.

سوف نهجرُ المنفى، ليس من أجل الحجّ، ليس حتى من أجل العودة إلى الأصول، لأنّا أبداً لم نهجر الأصول، لأنّ، النملة والزيزان، كلها مكيّفة، لأن الشجرة، بحاجة إلى جذورها وإلى جذور أرضها، لأن الوطن، محطّتنا الابتدائية، منضبطٌ وفخور بحقيقته، فهو ظاهرة بيولوجية خالصة. قلت قبل حين: أيتام لقرّاء حقيقيين». فليعذرني، وليفهمني إذن، كل اللواتي، وكل الذين تابعوا مساري الأدبي، بشغف وبكل طيبة.

القرّاء، لدينا كثيراً من القرّاء، في الجزائر، في فرنسا، و في كلّ أرجاء العالم. نحن نعلم بأن الاهتمام الذي تولّد، والانتباه الذي يحدث أن نجلبه إلينا، ليس ينبع من تعاطف سياسي خالص فقط، يجعل الشاعر أو الروائي يفيض. عبرنا، تُدافعُ الجزائر وتتألّم، والتي نحيّيها الآن: نحن الوارثون البؤساء لأحداثٍ مصدومة وصادمة.

القرّاء، لدينا قرّاء، لدينا كثيراً من القرّاء، وناشرونا، هم أحياناً، هم دوماً تقريباً أصدقاء لنا، وهم لم يخطئوا في خيارهم، وقد كان عليهم أن يوفّقوا في الموازنة بين المتطلبات التقنية لخيارهم النّوعي والمنفعة السياسية لمنشوراتهم. فليُسمح لي هنا، بأن أُحيّي كلَّ من استطاع منهم أن يتحمّل أخطاراً كبرى مادية ومالية من أجل الثبات على عهدِ إنسانيةٍ حديث، وطلائعي.

القرّاء، لدينا قرّاء، لدينا كثيراً من القرّاء، بيد أنّه، لا أحد باستطاعته أن يمنعني من أن أردّد بأنّنا، بسبب قوّة الأشياء، أيتام لقرّاء حقيقـــيّين. فمن نكتبُ لهم في المقام الأوّل، لا يقرأوننا، وعلى الأرجح، لن

يقرأونا أبداً. فهم يجهلون حتى وجودنا ذاته بنسبة 95 %. هؤلاء القرّاء، وبإضافة حرف لأسمائهم تحوّلوا إلى حفّاري قبور مبارَكين من طرف كلِّ الإمبرياليات، هؤلاء القرّاء الذين قايضوا كُمّ المحراث بعقب البندقية، فأذهلوا العالم كلَّهُ، وأرغموا الجنرال ديغول ذاته على احترامهم. هؤلاء القرّاء الذين يَحْيَوْن، ولا يكتبون التاريخ- فلا نستطيع القيام بشيئين في الوقت نفسه-، هؤلاء القرّاء الذين لا يقرأوننا، الذين ليس بإمكانهم أن يقرأونا، رغم أنهم، هم سبب وجودِنا ذاته، السّبب الذي من أجله نكتب، الدافع وهدف الثورة الجزائرية: الفلاحون.

إنني أستمع هاهنا للاعتراض، وهو ذو قيمة، إذا ما كانت الحجّة سيّئة النية:

هذا الجزائري الذي تأبّط كتابَك عند ذهابه، هل كان بإمكانه أن يقرأك أكثر، لو أنّك كتبتَ باللغة العربية؟

طبعاً لا.

وهذا ما لا يفسّرُ شيئاً. رغم أن التفسير سهل المنال، بسيط، تافه حتى في وضوحه:

رأى المُستعمَرُ بأن موروثه الثقافي قد نُهبَ، كما حُرِم من أرضه. جرّدوه من ممتلكاته، من أرضه ومن ثقافته. كان عليهم أن يقتلوا روحه – والروح لا تموت- لذلك جرّبوا كل شيء من شأنه أن يبقيها مشتعلة، كي يُطفئوها

لسيرورة الاستعمار منطقٌ شديد القسوة: فهو سياق زرع مستعمرات. بنفس طريقة سلوك الغالب الذي يرفع عَلَمه بدل عَلَم المَغلوب، نحى نحو فكِّ، معارضَة، منْع.. كلّ ما من شأنه أن يكون حجّة لفكر أصحاب الأرض الأصليين، أو لقومية وطنية.

بيد أنه، وفي ظلمة نظام الاستعمار، سيظلّ الإسلام هو الحارس.

***

ضمن شرح فكرةِ صحوة القوميات وصراع التحرير السياسي، هناك ظاهرة، لطالَما غفلنا عن أهمّيتها: الظاهرة الدينية. إنّه أمر واقع: الثورة الجزائرية الحالية، ثورة لائيكية. ونحن إذْ نُعيد للإسلام المكانةَ الكُبرى التي تعود إليه، في الحفاظ على القيم المتوارَثة والدّفاع عمّا بإمكاننا أن ندافع عنه ممّا تبقّى، فإننا لا نغيّرُ مسرى الثورةِ وأصولِها.

الديانة القرآنية هي الحارس الأمين على اللُّغة، خضعت دوماً للرقابة، للتسيير الصارم من قبل القوّة المُستعْمِرة. تمّ اضطهاد العُلماء، وحتى الشيخ ابن باديس، المناضل الكبير، رائد الإصلاح، كادَ أن يلقى حتفَه في السجون الفرنسية التي نزل بها مراراً. على المقام نفسه، أحد تلامذة الشيخ، والذين خلفوه فيما بعد في معهد قسنطينة، الذي يحمل اسمه ذاتَه، أحمد رضا حوحو، تمّ اغتياله ضمن المظاهرات الدّموية، في مارس من العام 1956، وفي المدينة نفسها.

إنّه لأمر عميقٌ في رمزيَّته، أنْ تزوغ كنوُزٌ معمارية كمساجد الجزائر العاصمة، والعاصمة العتيقة لنوميديا كليّة، دون أدنى احترام للقدس، عن وجهتها الأولى، كي تستحيل إلى كاتدرائيات ومعابد لليهود.

بتهجُّمها على الإسلام، فإنّ الامبريالية، كانت تتحرّكُ انبثاقاً من بصيرةٍ قصيرة ونهج سياسي، أكثر منه انبثاقاً من التعصُّب الديني. حلمُ الكاردينال لافيجري، لَحق بحلم الماريشال «بيجو»: البندقية والمحراث، لجأ إلى الاستعانة بالسيف والصّليب.

هنا، يربضُ مثال أصلي لمحاولة إزالة ألوان الوطن، لاقتلاعٍ تاريخي للجذور الأصلية.

لن نكلَّ من الترديد، بأن قوساً مفتوحاً لخنق الثقافة والسياسة، ممتدٌّ منذ 124 سنة، من الخامس من شهر جويلية 1830 من كسوف شمس الاستعمار، حتى الواحد من شهر نوڤمير 1954، لن نكلّ من الترديد، بأن للإسلام ودعاته مكانة كبيرة في الجزائر، يرجع إليها الفضل في الحفاظ على آخر المعالم الأصيلة التي لم ينَل منها التشويه، على خصوصيته اليومية، أصالته الثقافية، وأخيراً، على ما تبقّى له من وحدة عضوية وتراصٍّ في عباراته التأسيسية: اللُّـغَة.

***

فاللُّغة لا نرضَعُها فقط من نهد الأمّ. لا نتقــنُها في الحجيرة الصغيرة الفقيرة لعائلة، هي ذاتُها، مغمورة داخل معنى ذي إملاق، مبتورِ الجذور، صيّروه لقيطاً. اللغّة، تُلقَّـنُ في المدارس أيضاً، في اللِّيسيه، في الجامعة. هل ينفع أن نذكّر بعدد الأطفال الجزائريين غير المتمدرسين، والأدهى من هذا، عدد الصّغار الذين تمكّنوا من الحصول على شهادة التعليم الابتدائي، الذين تجاوزوا هرم البكالوريا، الذين مروا إلى التعليم الجامعي؟ أهمّ من هذا كله، وهو أمرٌ أدهى وأكثر بلاهة، المضمون التربوي وطرائقه المعدمة المسؤولة عن كلِّ هذا التدهور.

منذ الابتدائي، كان هذا التعليم يتمّ بالفرنسية، مصحوباً بحظرٍ تام للُّجوء إلى العربية، حتى من أجل بعض التسهيلات البيداغوجية. وكانت دروس الجغرافيا والتاريخ الجزائري تمرُّ مروراً خاطفاً فقط عند نهاية حصص

دروس السّنة الثانية متوسّط. في اللّيسيه، كانت العربية تدرّس وتعلّمُ كلغة برّانية. العلوم الأخرى، كالعلوم والرياضيات..إلخ، تدرّسُ بالفرنسية. لغتنا الأمّ كانت منفيةً في وطنها. في موضع آخر، كانت الصُّحفُ، الإذاعة، المحاضرات، الأفلام، المسرح، الإشهار على الحيطان، الإجراءات الشكلية التي تتمّ بين حوالة البريد والحالة المدنية، كلُّ ما من شأنه أن يُكتَب، ابتداءً من «ممنوع نشر الملصقات»، حتى إشارات الشوارع، كلُّ شيء، كل شيء بامتياز، كان من صلاحيات اللُّغة الفرنسية التي تتحكّمُ فيه.

كانَ من المفروض أن نرى كيف يُعامِلُ، وقبل وقت قصير فقط، بعضُ المدرّسين النازحين من بعض الـ «بواتو» أو بعض «النورمانديً» تلامذةً متعطّشين إلى التعليم وإلى الأغذية الأرضية، فينعتونهم بـ «البلداء». أنا لا ألقي باللّوم على سلك المعلّمين طبعاً، لست «ديماغوجياً». ولكن، أحببنا ذلك أم لم نحبّ، ومهما كان نداؤه الأصلي المتفتّحُ على احترام قيم الآخرين، فإنّ سلك التعليم هذا، حتى وإن سعى إلى الحدّ من الخسائر، كان يُعَدُّ جزءاً من الترسانة الاستعمارية، وكان يساهمُ في الوقت نفسه، ويتعايشُ مع باقي الإدارات، والمؤسسة المدبّرة لاقتلاع الأصل، وهو الشيء ذاته الذي يقوم عليه الاستعمارُ كظاهرة.

***

لكلّ رهانٍ ممثّلوه. نحن- الكتاب الجزائريين- ممثلّون. أكرّر، جَدّي أبداً لم يقرأْني، كما أنّه لم يقرأ محمّد ديب، كاتب ياسين، «هنري كريا»، أو أياً كان من أولئك الصدّاحين المغنّين عالياً، الذين لا تنقصهم الموهبة، والذين تجعلني همّتُهُم، شجاعتُهم وكذا جسارتُهم، أتدفّأُ في

لهيب حبّهم الخالص، وكلّي رِضا. أُحيّي فصاحةَ كلّ هؤلاء البكم! أحيّي هؤلاء اللُّقطاء، ملوك اللُّقطاء!، أحيّي مسيرتهم. وأتفهّمُ خرسَ البكمِ. عاجزٌ أنا عن أن أُعبّرَ بالعربية عمّا أشعرُ به بالعربية.

تِلكُم هي الظواهر! ولِكَون الاستعمار مرضُ التاريخ، ليس من المستغربِ، وتبعاً لبعض الظروف، أنْ يتمّ تعريف بعض الموادّ الجامدة أو المتحرّكة حسبَ معايير مرَضية. متأكدٌ أنا بأن بعض الكُتّاب الجزائريين سيُغنُّون بلغتهم، اللغة العربية، من أجل غنى أفضل للغات الآخرين.

الغناءُ الموحّد في السيمفونية الجزائرية، لن يتأتّى من كلمات هذه السيمفونية، وإنّما من الموسيقى المتماهية. لن تكفي كلُّ الأصوات لجوقٍ مماثل. وأمّا بالنسبة للجزعين، فإنني سأقول لهم: بما أنّهُ، ليس في نية الجزائر أن تحتلّ فرنسا، فإنّني لا أرى لماذا وكيف للُّغَةِ العربية أن تهدّدَ اللغة الفرنسية أو كمون الثقافة الفرنسية بشكل عام. من جهة أخرى، 124 عاماً من التعايش، خلقت روابطَ وحقيقةَ أقليَّةٍ أوروبية معتــبرَة، مما يُحتّمُ علينا أن نَحُلّ جيداً مشكلة ازدواجية اللُّغة. سيكون هذا بمثابة الإجراء البسيط لعملية في المتناوَل، وأبداً لن يكون مشكّلةً تؤرّقُ معتقَــد القُطبَين، لأنّ الجزائر الجديدة، وبكلّ تأكيد، لن يكون بها طائفتان اثنتان، وإنما طائفةٌ واحدة، الطائفةُ الجزائريةُ، غير القابلةِ للانقسام، مُفرنسين كان أعضاؤها أو مُعَرّبين.

في هذا الباب، إن التجاربَ المسرحية لمصطفى كاتب تمتلك جرأة نادرة، وغنًى تربوياً رفيعاً. هذا الفنان العالي الطراز الذي كان يؤكّدُ على أننا: **«تمكنّا من مقاومة بيجو، ولم نستطع أن نفعل ذلك مع موليير»**، ويواصل: «في الجزائر، موليير هو الأكثر استحساناً. هنا، يكمن تناقضٌ عجيب... الرجل الذي تبنّى أولى خطواتِ المسرح، والذي قاده إلى

الرُّشد،

كان سيلقى شبابه وسط مجتمع، لم يكن أبداً مختلفاً عن ذلك المجتمع الذي منع عن «جون باتيست» نذره السّاخر لعربة الموتى الرّسمية. لم يكن موليير غريباً عن الشعب الجزائري، لا علاقة له بالقوة المستعمِرَة؛ وهو مَنْ علَّمَنا بأن أول عدوٍّ لنا، هو العدوّ الكامنُ فينا: السيّدُ والإقطاعيُّ الذي استطاعَ أن يكشف عنه النقاب في فرنسا، هو نفسه من كان يفتح ذراعيه للغزاة في الجزائر عندنا...»، وأيضاً، مزيداً من رؤى مصطفى كاتب: **«لا يمكننا أن نُدمجَ شعباً، بيد أن الشعب الجزائري، أدمجَ موليير».**

وبعيداً، هذا الصراخُ المُزَعزِع: «سيدركُ الشعب ذات يوم، كلَّ ما يُدين به لبعض أيدي الناجين الذين تشبّثوا ببعض الضّالين من التعليم القديم التقليدي، وكذا للمدرسة القرآنية، لأولئك الذين، لم ييأسوا، وواصلوا تعلُّمَ لغتهم الأمّ، في الجامعات القديمة للقرويين و«الزيتونة» وآخرون، أكثر جرأة، في القاهرة».

بدخوله في سيرورة اقتلاع الاستعمار التي لا رجعة فيها، فإن الشعب الجزائري، يُناضل من أجل حقِّـــه في الحرية. لقد نزل من علياء سحابته الميتافيزيقية، وأصبح التحريرُ بالنسبة له، يعني الحقّ في الوجود الشخصي. واللغة العربية تعني إحدى مظاهر هذه الثورة من أجل وجودٍ أصيل. شئنا ذلك أم أبينا، رضينا بذلك أم لم نرضَ. في أغلبيتها العُظمى، الجزائر معرّبة. والإقرار بكون اللغة العربية، لغةً وطنية، لن يعرّض اللغة الفرنسية للخطر أو للإعاقة، والتي - شئنا ذلك أم أبينا- تُعَتبر من الآن فصاعداً جزءاً من تراثنا الوطني.

***

سَرَد عليّ ذات يوم «جبرائيل أوديزيو»، جملةً خاصة به تختزل جيداً تفكيره: « اللغة الفرنسية، وطني». أذكر جيداً بأنني أجَــبْتُه:

اللغة الفرنسية، منفاي.

أحترمُ، وأتفهّم كلمة «جبرائيل أوديزيو» تلك، إضافة إلى أنّ كاتباً في مثل سنّه فاجأه التاريخ ورجّهُ، بإمكانه، ومن أجل تفادي بعض التشرُّد، أن يلجأ إلى ذلك الوطن المحليّ الخارق الذي تَحفُّ حدوده الجغرافية

والتاريخية ضفّة المتوسّط.. شخصياً، قلبي وقلمي مأخوذان بحنين أوحد: تلك اللغة التي نتكلمها، وإصرار حزين يرافقها: لغةُ شارع العرب.

***

وطني، هو الجزائر. جزائرُ الغَدِ، هي حين أقول بأنني جزائري، فلا أسقط تحت وقع ضرباتِ لستُ أدري أيّ تهديدٍ للأمن الداخلي للدولة التي أحترِمُها، دولة أتمنّى صداقتها، وأعرض عليها صداقتي، لكنها دولة لا أعترف بكونها دولتي أو لها حقوق عليّ. الجزائر، هي وطني. والحب الذي أكنُّه لها، لا يعرّضُ بلد «الموزيل» أو سماء «اللُّوار» للخطر.الأمر يتعلَّق بجزائرِ الغدِ، وبخاصة، بجزائر اليوم، المذهلة في غَضَبِها، وكذا في تضحيتها. جزائرُ اليوم التي أعادت خلق كلمة: «إنسان». ولكن الأمر يتعلَّق، في المقام الأول، بجزائر الغد، قبل إنزال سيدي فرج. تلك الجزائر التي لم تكن تعلم بعد، بأن أجدادنا كانوا غاليين...

أفتخرُ بكوني محافظاً، ولا أحلم ببلد محرَّر يكون بمثابة جمهوريةِ ذلك الذي أسَرَها في ظلِّه، وحَكَم عليها بأن تعيش الخمولَ، محرومةً من بناها،

من تقاليدها، من أشكالها العاطفية المتطوّرة، من طريقتها في الاعتقاد بالله، ومن طرقها الخاصة باعتقادها بالمواضيع الأبدية العظيمة.

لن تنتصر الإمبريالية إلا إذا حدثت مصيبة... أقول جيداً، إلاّ إذا حدثت مصيبة تشابُهِ المغلوبِ بالغالب، فتخلّى عمّا يشكِّلُ جوهر شخصيته التاريخية والجغرافية. بالنسبة لي، الطليعة هي الرُّجوع إلى الماضي، وأنا أطلب ممن لا يحسنون الدفاع أن يجنّبوني كلَّ محاكمةٍ لئيمة. فلا تُحدّثوني عن حجاب المرأة العربية- علماً بأنني أعتبر ذلك بمثابة زينة- أو عن أي شيء آخر قد يبدو باطلاً، ويجعلنا لا نفرق بين التحرير والتغريب، وقد حُمِّلنا بكل القيم التي لا تدخل ضمن قيم موروثِنا. الأمر، لا يتعلَّق بالمواجهة بين حضارتين، وإنّما باحترام كل حضارة لشخصية الثقافة الأُخرى.

أنا في المنفى داخل اللُّغة الفرنسية. والمنافي لا تعني بأنها بلا شأن. وأنا أحييّ اللغة الفرنسية التي سنحت لي بأن أخدم، أو أحاول خدمة وطني الحبيب. حين يستتب السّلام والحرية في وطني، سوف أقول أيضاً، ما لم أتوقّف عن قوله، بأن حبي للأوراس، ليس مخالفاً للإحساس الذي أشعر به أمام «الفيركور». ليس هناك فرقٌ كبيرٌ بين «جان دارك» والكاهنة، بين الكلونيل «فابيان» وعميروش، بين «جون مولان» وبن مهيدي، بين كاتب ياسين و«بول إيلوار». كما لا فرق كبيراً بين أكبر فرنسي في الفرنسيين، وهو يصدح بأمله عبر الإذاعة من لندن، «شارل ديغول»، وبين أكبر جزائري في الجزائريين، وهو يصدح بقناعاته عبر إذاعة تونس، فرحات عباس.

بيد أنّ كلَّ شيء يبدو حاضراً الآن، فبالنسبة لنا، نحن- الكتاب الجزائريين- بإمكاننا أن نعبّر عن الإنسانية الحقّة باللغة العربية. ورغم

أنه، أو بسبب خطأ في اللغة ندين به للاستعمار، فإننا نطرح هذا السؤال: من هم الكُتّابُ الجزائريون؟

***

ليس جزائرياً تماماً، من يريدُ. نحن الكتابُ الذين نعود بأصلنا إلى العرب والبربر، ساقونا إلى الغناء بلغة جميلة بين اللغات، هي تاريخياً، ليست لغتنا الأمّ. وما يميّزُ الكُتّاب العربَ – البربر عن باقي الكتابِ الجزائريين، هو ليس فقط انشغالاتهم السياسية الأكثر قِدَماً وحدّة، وإنّما أيضاً حنينهم إلى لغة أمّ حُرِمنا منها، وصرنا من دونها أيتاماً لا ينفع فيهم حتى العزاء.

ومع الكتاب الجزائريين، ذوي الأصل الأوروبي، الذين اختاروا الجزائر، فإن رابطَنا الوحيد هو المستقبل. وهو أمر ليس قليل الشأن.

أثرُ الإسلام فينا، يميّزُنا، ولا يمكن له أن يفرّق بيننا. فُلكلورنا، طرائق تفكيرنا وإحساسُنا وممارساتُنا، خاصَّة بنا. حتى ونحن نعبّرُ بالفرنسية، نحمل حلماً، غضباً وشكوى تنبع من قرون وقرون من تاريخنا الوطني. فلا تقولوا أبداً إن الجزائر لم تشكّل شعباً، أو، الأدهى من كل هذا، أنها لم تكن في الماضي القريب فقط- حسب تعبير أحد الماركسيين، «موريس توريز»- «سوى شعبٍ في طريقه إلى التكوين».

الغربُ الذي يعرِضُ نفسه كمثالٍ تتآكله الأنانية والعنصرية، غضٌّ بذائقته المرضية التي لا تتوقَّف عن التظاهر، والذي تحرّكُه أبويةٌ متعالية غازية، أبداً لم يستطع أن يعترف بوجود أشكال أخرى للدول وتظاهرات وطنية أخرى، تختلف عنه. إنّه غربٌ احتكر حتى الإنسانيةَ ذاتها.

***

في حقيقة الأمر، وبخسارتها بقوّة السّلاح، رأت الجزائر نفسها وهي تذوب في اللذة الرفيعة للمنتصِر الذي غيّر بُناها في نفس وقت تغييره لبيرقها وللغتها. يوجد ما يكفي من وثائق عبر العالم، أصليةً وذات مصداقيةٍ، تؤكّدُ وجودنا قبل عام 1830، على مستوى محلّي وآخر دولي. على حقوقيينا إذاً، أن يبدأوا بحوثهم الجادّة لاستعادة ترتيب الأحداث بشكل حاسم وفاصل.

ما علينا أن نُسجِّله بشكل هام هو أنّه، حتى وهم يعبّرون باللغة الفرنسية، فإن الكتّابَ الجزائريين، ذوي الأصل العربي- البربري، يعكسون ذهنية جزائريةٍ خالصة، ذهنية، كان بإمكانها، لو وجَدَتْ فضاءً لتجربتها الواسعة، أن تتشكَّل بكلام وكتابة عربيَّيْن.

بإمكاني أن أظلَّ خمسين سنة في هذه «البروڤانس» (الضاحية الباريسية) التي أُحبُّها وأتفهّمها. هذه البروڤانس التي ألهمتني كتابة العديدِ من مؤلفاتي، دون أن أكون من شعراء الضّوَاحي. الحبُّ الذي كانت تحمله مثلاً، «إيزابيل إيبرهارت» لم يكن كافياً لصناعة جزائريةٍ. أعرف صفحاتٍ رائعة لـ «غي دوماباسون»، مستلهَمَةً من قسنطينة التي بإمكانها أن تأتي ضمن مجموعة نصوص مُعَدّة من أجل الجزائر، ولكنَّها أبداً لن تكون ضمن أنطولوجيا للكتّاب الجزائريين.

الجنسية الأدبية، ليست إجراءً قانونياً، ولا تعود إلى المشرِّع، وإنّما إلى المؤرِّخ. التطبيع، يمنحُ مكانةً، ولكنه لا يمتدُّ إلى جوهر الشخصية ذاتها. التأقلم ليس إلا شيئاً سطحياً ظاهرياً. قد نبدو على راحتنا، مسترخين، راضين، ولكن كل هذا، يُعَدُّ عدماً.

أحياناً كثيرة، ونحن نناقش زملاء لنا، كتَّاباً فرنسيين، أصدقاء أو منافسين، يغمرني شعورٌ عميقٌ، بأنّ ذلك النقاش يتمّ باللغة الفرنسية فعلاً، إلاّ أننا لا نستعمل فيه اللغة نفسها. نملأُ الكلماتِ بمضمون، ولكننا نمنحه معنى لا تعكسه اللغةُ الفرنسيةُ كليّة.

فلنتفق: كلماتنا، أدواتُ تعبيرنا اليوميّة ليست في مستوى رفعة أفكارنا، وهي أقلُّ حتى من أحاسيسنا.

هناك فقط مراسلة تقريبية بين فكرنا نحن - العرب- وبين مصطلحاتنا الفرنسية.

هذا هو السّبب الأسمى لهذا الارتباط المؤسف، الذي أدّى بالأصفار إلى أن تدور حول نفسها.

الشّقاء في خطر

إلى صديقي الشّاعر الجزائري

...لستَ جزائرياً فحسب. لذلك،

لستَ مُلزَماً إلاّ بإثبات لا اكتراثك،

من أجل تضامُنِك أكثر.

مالك حدّاد

أعرفُك، أنت تتساءلُ الآن إذا كانت قصيدتُك جديرة فعلاً بأن تكون أغنيةً جريئة. المهمّ، ليس هنا. المهمّ يقبع في حالة وعيِكَ. لقد فهمتَ بأن التناقضَ، لا يوجد بين قلم وأُغنية جدُّ جريئة. لقد رجّك التاريخُ حتى غدوتَ بدورك تشعرُ بحقّكَ النّبيل في رجّ التاريخ ذاته. وهو نفسه، بعض ذلك الشعورِ تجاه الأشجارِ التي تبتر غصونها كي تتحوّلَ إلى أعقاب بنادق.

ليس هناك أجملُ من الحرية...

بيد أنّه، ومن أجل أن يستحيل التاريخُ إلى قصص بطولية، علينا أن نختارَ أيضاً بين القيلولةِ تحت ظلّ شجرة، وبين تلك الأغنية الجريئة. وفي تشريح المعجم الغريب، كلمَتَا: مهمّة وواجب، شريكتان. عليّ أن أقوم بواجباتي. ليس لديّ مهامّ لأنفّذها...

ليس قدرُ الأشجار أن تنتهي أعقابَ بنادق... ليس قدرُ الأقبية الرّطِبة أن تمنح بارودها لنهاية الحياة. ليس لكلّ عضوٍ الوظيفةَ التي تناسبه.

أيها الشاعر، يا صديقي، فلنجعل القلبَ ذكياً، ولنمنح الذكاء قلباً.

أريدُ براكينَ عاقلة! النَّزقُ، عريُ العقلِ والعاطفة السّليمة.

أنتَ تنقعُ قلمَكَ في المنابع التي تجرِفُ الجثامين المنتفخة المقيتة للحيَّات العدوّة للمياه الرقراقة المدندنة.

محبرَتُك هي النبعُ: كليّةُ الإنسان. في آخر قاموسٍ، وفي آخر أنطولوجيا، سوف نطلق على كلمة «بطل» صفة: إنسان.

أعرفُ قلمَك، بنفس قدر معرفتي بأبنائنا، بنفس قدر معرفتي بطيبتنا. أعرفُ قلمَك، بنفس قدر معرفتي بحالة الطوارئ، بنفس قدر معرفتي بأصدقائنا، بوادي الرِمال ذي الدُّموع المتوحّشة الحارّة. أعرفُ كاتب ياسين، وهو يغيّرُ من طريقته في الحياة، عبر «جثّة»، وحدهُم الأغبياء «حاصروها»[17]. وتلك النيّة الطيبة لمحمد ديب، الطيبة كدرس مفيد...

أعرف «رولان دوخان» الذي يتجاوز حلمُهُ آمالَنا بكثير، وهو يصرّح:

...حلمتُ بوطنٍ، يصبحُ شاعراً...، وكرّاز، صاحب الأغاني التي ستجيء. ومحمّد العيد الّذي عرف السُّجون لمجرّد إقامته على رأسِ لغةٍ غاضبة. و«جون سيناك»، الطافح موهبة وريبة، والأكثر وفاءً لوطنه الجزائر، منه إلى مهارات القلم.

أعرف كلَّ هؤلاء، بَذْلةً أو جِلاَّبَة، كلهم حاضرون، ويخبروننا:

17- «الجثة المحاصرة» مسرحية لكاتب ياسين.

كلنا مستعدّون.

أيّها الشّاعرُ، يا صديقي، ستكونُ هناك دوماً مسحةَ غرابة في قلمك.

من الحديد يولَدُ التاريخ!

كلّ شيء بإمكانه أن يصدِمَنا. الهندسةُ وقد سيقت إلى زاويةِ جُرمِ بندقيةٍ قبيحة، وطبعاً، أنا لن أُفَيد بشيء في هذا...

عليّ أن أقوم باعتراف مَهيب: حين كنتُ طفلاً، حين كنتُ أركبُ القطارَ، كان هذا بمثابة فسحة؛حين كنتُ ألصق أنفي على الزجاج، كنتُ أعتقد أن بإمكان عينيّ أن تريا دائماً أعمدةَ التلغراف التي لن تتــقطّعَ.

اليومَ يا صديقي، صرتَ ترى أبعد من أرنبةِ أنفكَ، أبعدَ من واجهات المحلاَّتِ التي لم تَلج إليها، أبعدَ من تلك الأعمدة التي كانت تراقصُ السنونوّاتِ من بعيد ومن القطار في طريقه إلى الزوال... من القطار، في طريقه إلى الزوال...

صارَ ذاك الزمن محلّ احترام!

اليوم، صرتَ ترى أبعد من نهاية بندقية. صرتَ ترى أبعد من نهاية قلمك. عليك بالرّحيل، يا عزيزي، من أجل بقاءٍ مشرّف. «أراغون» أطرى عليكَ: «عصفورَ الغصن الأعلى»، وإن هو جعلك تخجلُ، فهذا حتماً ليس بكِبْر. لقد فهِمَ «مایاكوفسكي» هذا. بيدَ أنَّه، كان كثيرَ الوحدة. كان وحيداً كحارس. كان وحيداً كإنذار. كان وحيداً، واقفاً، مفجوعاً وفخوراً، وراسخاً. كان عريضاً كطرْف ثوب. ألصقَ أنفَـهُ على زُجاج الصّباح. فهل سنعرف ذات يوم، كيفَ انكسرَ الزُّجاج؟...

أنت تتساءلُ إذن: ما معنى عدوٌّ؟ العدوُّ، رجلٌ له ذراعان وقدمان، مثلك، بَـيْدَ أنه لا يؤمن بالربيع إلا وقد لاح عبرَ التقويم.

كلّيَّةُ الرَّجل هذه، التي ترتسِمُ في عَلَم، في برتقالةٍ، في خريفٍ فاترٍ، شبيهٍ بنهد امرأة مشتهاة، في كلّ رجال العاَلم الذين سيمُدُّونَ الأيادي أحدهما للآخر حين لا تُقطع أذرعُهُم؛ كلّيّةُ الرّجلِ هذه، ستصلها، حين تحسنُ البحثَ في كل زوايا شقائِكَ. سُحْ في الصَّحراء. خذ صحراءك في فسحة. اصنَعْ أخلاقاً كما تَصنَع «وردةَ رمال».اصنع شيئاً يكون أخلاقاً، و«وردة رمال».

هذا أنت، شغوف على أعصابك عديمُ وفاء. خسرانك الواعي للوفاء، هو موهبتُك الفُضلى. ولأنّك، لم تعد بعدُ الإله الطيّبَ. وحين تنتهي من البحث في كل زوايا شقائك ولا وفائك، ستفكِّرُ في الصّيَادِلَة، هؤلاء الرجال الطيبين الفخورين، المتكدّرين، الذين ليس لديهم من مهمّة، سوى توزيع المشروبات المنقوعة التي تريح. كن عطّاراً. قُدْ نفسَك نحو السّأم خلف القارورات.

ليس لدى هؤلاء الرجال الطيبين مزاعم. ولذلك، وجب الانتقام لهؤلاء الرّجال الطيبين. وجب إقامةُ منابع، وديان وأنهر. تلاعَبْ بالمجرّات. كن بسيطاً وطيّباً. الطريقُ الأقصر بين نقطتين، ليس هو الخطّ المستقيم حتماً. وحين يمضي جُنديٌّ للقتال فليس من حقه أن يُغنّي. ولتحترم الأزهارَ، ولا تضَعْها على فوّهة بندقيّتكَ.

إذا ما حدث أن نمتَ ذات قيلولة حارّة، فليكن ذلك، أرجوك، عند بداية جبل مكسوٍّ بالبنفسج.

خطِرةٌ هذه المهنة. قد نخلّف جرّاءها أقلاماً، بيد أننا نصنع أغنياتٍ،

أخبرني العندليب الذي يحسن الغناء أفضل منّي. هذا العندليبُ، يكتسي هالة النَّسر، بمجرّد حديثه عن الحرية. يُدعى عربةً، يُدعى، سقياً. هذا العندليب يُدعى، قمحاً، قمحاً، قمحاً...

لا تكن قبّرةً تسرقُ الحِنطة، وتستغلُّ أزمة سكنٍ عتيقة كي تزرَع أغانيها في ثلم لم تشقّهُ هي.

أنت تقرأ في خطوط أيدي النّاس. تشخرُ كقاطرة، وتخجلُ كحُبٍّ أوّل. سوف تمضي برجليك يا أيها الجنديُّ. وزّع لاوفائَك. مزّقـهُ قطعاً صغيرة، فهذه هي الوسيلة المُثلى للعثور على الطريق. ثمّ لا تكترث... ولكن، ماذا سوف تفعل حين يعتريك ألم الحبّ؟ ماذا سوف تفعل بأزاهير مايو؟ ماذا سوف تفعل بقِطَع قوس قزحٍ لرومنسيات العشرينات؟ لا تكترث...

أغلِقْ فمك الكبير وتكلّم! تكلّم، ولنسمعك أو لا نسمعك. تمثالُكَ، سيصنعه الآخرون. ولتتذكّر «ماياكوفسكي»: «أنا لا أهتمُّ بالبرونز حين يكون بالقناطير» أوه! ذلك الفخر اللّذيذ الذي يتأتّى من تلك الأغاني التي لا نقدِرُ رفعتها!...أسمّيك «فولكلور». أنتَ أكبرُ من وطنك. أنت أكبر من قارّة. اسمعني جيداً: الإنسان أنت. انتعِل الجزائر. رجلاك يا أيُّها الجُنديُّ، رجلاك يا أيها التروبادور، عثرا على مقاسهما. سِرْ! عليك بالسير، بالسير، دوماً عليك بأن تسير، إنها طريقتُك في الانتظار.

أنتَ تكتُب لأنّك تحبّ. إذا لم تكن كذلك فضع القلم. بفضل رجليك يا أيها الجندي، بفضل رجليك يا أيها التروبادور، سوف تَشُقُّ طُرقاً، دروباً، سوف تتضوّعُ أساطير، على حوافها يسكن الحلزون!

أغلِق المذياع. لا تفتح بريدك. انظرْ إلى والدتِكَ. ألا تشتاقُ إلى أن تقبّل والدتك؟ الخدُّ، شيء رائع! عامية همجِيةٌ تجرّأت على القول: ثبّت

على الخدّ[18]...

أنت طيارٌ على طريقتِك. وأنا أحذِّرُكَ، لن تتمكّن من الطيران كثيراً، وسوف يحلّقون حتى وصيتَك. وأنت طبعاً، لن تكترث لذلك، لأنّك شاعر...

وعليه، فإنّ هذا الأمر يتطلَّب منك أن تصرُخَ عالياً. أن تصرخ حتى يتبيَّن شأن أمرك. على جدران بيتكَ، لن تكون هناك إشاراتٌ تحيلُ إلى المعهد الذي نلتَ شهادتك منه. رغم أنّك أفضل من أصحاب الشهادات. أنت وصفُ حال: أنتَ إنسان. لقد مارست إنسانيتكَ...

أنت هو ذلك السّبق الرّائع، لذلك النجار الذي لا يُعدُّ سوى نجّارٍ سيتحوّلُ إلى شاعر. لذلك الجرّاح الذي لا يعدُّ سوى جرّاحٍ سيتحوّلُ إلى شاعر. لعاملِ النظافة الذي لا يعدُّ سوى عامل نظافة سوفً يتحوّلُ إلى شاعر... وأنتَ...أنت لست سوى ذلك النّور القادم من النجوم إلينا بعد عصور بعادٍ طويلة.

والآن، سوف تحاول أن تسعى كي تستحقّ العُلا. هناك، سوف يبدو قلمك الصغير شيئاً هيّناً. سوف تلامسُ ذراعَ رُبّانك بنفس قدر احترامنا ولا اكتراثنا لغانيةٍ طيّبة. قالها جيداً «أراغون»: «والآن، اصمتوا كي أنصِتَ إلى قلبي» بيد أنكَ سوف تحسنُ الغناء. أوو لالا! فلتَحذَر جيداً. عليكَ أن تكون في مستوى الرّجال. صديقي، أيها الشّاعر، أرجوك، لا تحتكم سعادةِ المنتصر الذي يحتقر غزوتَه.

حاربتَ لأجل العصافير. ستكونُ لديك مزايا الطيّار الدقيقة لا مزايا الصيادِ الماكر.

18- إشارة إلى وضعية عقب البندقية قبل التسديد نحو الضحية.

سوف تملأُ حبّكَ وغريزتَك بالذكريات. عليكَ أن تبدو جميلاً. فِعلُ صرفِك الأول، قبل كل الأفعال هو: فعَلَ. إنّني أحذِّرُك حالاً: أنتَ لستَ مغامِراً. افعل ما عليك أن تفعَلَه.

فلنحلِّلْ يا رفيقي: أنتَ مُدان للكثيرين. لأولئك الجنيّات اللواتي أصبحن «أوكسيجين» و«هيدروجين». لذلك، عليكَ بأن تتقدَّم بتقرير للماء. أنت تعلم: الماء في القِربة وليس في كأس، ولكن، هناك عند النّبع. سوف تشرب من النّبع. وأبداً سوف لن تغرق. سوف تعلِّمْكَ الحرارةُ حماقتها. وسوف تمضي لتشربَ عند الجبل.

ليس للدّم طعمٌ طيّبٌ.

أنا أُفضِّلُ خمرة الرُّوزيه.

بيد أنّ هذا لا يعدُّ سبباً لتحاشي الجبل. أنت طيّارٌ، تعَلم هذا جيداً. من أجل السّحابِ نقصدُ الجبلَ.

أحياناً، تصبح الأسحبُ شريرةً. أحياناً، تكتسي جباهها الحزينة تشقُّقاتٍ. علينا بأن نزيح الغطاء عن عيوننا. متأكّدٌ أنا، بأن الماء كان سيوجد دون الأكسيجين والهيدروجين. في المدرسة، أخبرونا: التويج، النوارة، النورية. وأنا أقول: بريّة. أبداً لم أرَ البرية. وعليه، فإنني أرفع كتفيّ. كتفيّ على كاهلي. كتفيّ على ظهري. وأنا أسعى في هذه الحياة على رؤوس أقدامي، كَـبَرِيّ.

أنا من ينشدُ بالفرنسية، أيها الشاعر، يا صديقي، إذا كانت لكنتي تفاجئُك، فعليك بأن تعلم أنّ: الاستعمار أراد لي أن أعيش بخطأ لغوي.

وعليه، فإنّ الجوّ سيكون حزيناً وجميلاً، ولا مفرّ منه، كمهمّة نافذة.

سوف تخلّف الكثير من البقع على كراستك المدرسية.

ستختار مخطوطاتك. وبدءاً، قالمة، بدءاً، القرقور، ومثلاً، سيِئُولْ، مثلاً أورادور، مثلاً الفيركور، مثلاً أوكرانيا... وذلك الحطب الذي يتعاطف معي، ويمنحني شُعلَـتَهُ، حين أغدو شاهداً على الغابات التي وجب الانتقام لها... قياماً، يا من تعي بأنّ عليك أن تختار طريقَك، وأن توسّع فيها أكثر. سوف تقول: كلماتُ هذا الـ «مالك» فرنسية. أيّ « شيء»!! بإمكاننا أن ننطق الجزائر بالصينية. نعم أراغون، هنا تكمن «مأساة المسرح»[19]. إن أمكنني الغناء، ستكون كلماتي بالعربية.

أبداً لم يخطئ العسلُ، بيد أنني لا أُحِبُّ براغماتية النّحل. الزهرات نعم، كلهنّ صديقاتي. أعرفهُنَّ يا الله! أعرف ألقابهنّ. سورَنْجان في المرج، أو في الأشواك، حيث تصبح أكثر شراسة من قلب رجل إمبريالي...نعم، أنا أفوح كراهية، وأفتخرُ بأنّني كتبتُ:

أنا

تصدمني الكراهية

مثل سلوكٍ سوقيّ

بدءاً، أنا عاشق...

نعم، أنا أفوح كراهية! وكراهيتي حكيمة، كغذاء لا بدّ منه. فلتطمئنَّ يا صديقي، أبداً لم تكن لديّ شهية. شهيّتي شبه معدومة، يا سيّدي!!

19- مقال للويس أراغون في lettre françises. يوليو/تموز 1954، بعنوان: «رواية تبتدئ».

سوف تحاول أن تسعى لكي تستحقّ الذروة. سوف تطالب بوجود أغنيتك المختلف.

لستَ معادياً للفرنسي. لا يمكنك أن تكون كذلك، لا يمكنك أن تكون معادياً للفرنسي. اسمَعْني. رأيتُ هذا المساءِ عجوزاً، كان في مشغله في ساعة متأخرة من اللّيل. وتزامناً مع تقطيعه للجلد، كان هذا الصديق الإسكافي يتناول جُبناً. كان يمتلك أصابعَ ثقيلة وواثقة، بإمكانها أن تصافحك، أن تنسُجَ أكاليلَ للأول من مايو، أو تصفع فَظّاً. لا تنسَ هذا السيدُ العجوز، الذي كان يتناول الجبنَ، والذي أخبرني: «أبداً لن اصنع أحذية عسكرية». وَلَدُهُ كان قد مضى إلى الجزائر للخوض في حرب لم يُعلنها. فرنسا هي هذا العجوز. فرنسا ليست عدوّاً لك. هذا العجوز، الذي كان في مشغله في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل كان قريباً ربّما لديسنوس أو لبول إيلوار. إن نحن فهمنا التاريخ على هذا المنوال، فهو أبداً لن يغدو تصفية حسابات.

أحياناً، تنتابُ الموازينَ قشعريرةٌ غريبة. لا تندّد عبر أغانيك بفرنسا، ولكن بأولئك الفرنسيين الذين يدفعون بي إلى الريبة وأنا أكتب بالخطّ العريض جنسيتهم. أولئك الفرنسيين الذين لم يحترموا ذلك العجوز؛ والذي قد يكون قريباً لديسنوس أو لبول إيلوار.

ولكن، حين تمضي إلى الأعالي، حين تستحقُّ الأعالي، ستصبحُ أياديك نظيفة. لا يمكن للفرحة أن تتأتّى من الغضب. لا يمكن لأيّة أغنية أن تقاوم الهضبةَ التي تستحيلُ إلى ساح معركة. والجسور يا صديقي، إن هي انفجرت الآن، فلأنه يحدث أن تَرفضَ الجسور أحياناً أن تمدّ يدها لمصافحةِ فردٍ ما. إن غابت القامة الحقيقية لهذه الأعمدة التليغرافية، إن مضت شجرةُ البرتقال إلى النوم، يا صديقي الشاعر، فإنّ حلقة السّواد

هذه، لا بدّ منها. أسمَعُ دوماً ذاك الشخص في باريس وهو يقول:

فجِّروا، فجّروا الجسورَ،

حتى نرقصَ أخيراً.

ويضيف مباشرة بعد ذلك:

في أنحاء العالم الأربع

أنصت، وسأناديك.

كان ينادي على الحرية.

أفضّل الثلجَ. الوحوش لوّثَّــته. سرقت منّا كل شيء.

أظنُّ أن فروع الأشجار التي تئِنُّ وهي تلتهب في مدخناتنا تحكي عن غضبِ وشوقِ الأشجارِ التي استحالت إلى أعقاب بنادق وعصيّ. وحتى الرّعد، إذا ما أخبرناه ذات يوم بأن الكهرباء جعلت من روزنبيرغ بعض الكربون، لصرخ ذاته: سحقاً أخيراً! لقد أساءوا استخدامي..!

أعرف حنينَ الجداول. ندفع دوماً ثمنَ السلمون المرقّط للسيد شوبير زيتاً أبيض.

سوف أكرِّرُ نفسي مجدَّداً.

هناك صيادلةٌ بلا صيدلية، ولكنّ شفاءهم لا يمارس التذمُّرَ على الأرصفة. هم كذلك الشعراء. صيادون لا يصطادون السّمك إلا من أجل أن يهبوه

مياهاً أطيبَ، صيادون لا يشاغبون القبّرة إلّا من أجل فتح ممرّ غابٍ أكثر راحة، شاعرٌ، مجنونٌ بعض الشيء، كثيرُ الحكمةِ، قائد المغامرة العادلة على مقام الأفكار، لكَ الحقُّ في أن تقول كلمتك.

البعض يستولي على جبل إفرست، آخرون، على زهرِ الربيع، آخرون، على فكرةٍ أجملَ من مِرْوَد، فكرة أكثر مأساوية وجمالاً من وجه بلبل يُعيرُ ضوءَ القمر النغماتِ التي يهديها لصديقه بييرو؛ أنت، يا صديقي الشاعر، لا يمكنك أن تستولي على أكثر من مغامرةٍ عادلة.

لكلِّ غابة مكتشفوها. أنت «المغامرُ» الذي يصطادُ الأروية البلهاء غليظَة الطّبع، وحين أقول «صيدا»، فإنني أقصد، تحرير الأروية ومنحها قداسة الغزلان. أنت المغامرُ الذي ارتبط بالمَلحَمة. كريستوف كولومب، صاحبُ النية الطيبة، متسلّق أعالي الهدوء، مستكشف أغوارِ الطبيعة، ليس بحوزتك أقداراً أخرى غير انتقامك للغابات التي تحدَّثنا عنها منذ حين.

رجلٌ أنتَ، في خدمة الإنسان. «فوسيك» قبل أن يغادر، طلب منّا أن نستعدّ. ففي زمن الاحترام، تُهَيَّأُ الأسلحة دوماً.

أكبرُ أنت يا صديقي الشّاعر من أن تتحزّب، فأنت أقوى من الحمقى الذين تسيطر عليهم.

أنا مع الباقات. الشاعرُ أكبَر من أن يتحزّب؛ يحلّقُ في سماء وطنه كنسمة تحرير. النّسمة محاربٌ، ونشيدها ضاربٌ في الوطنية.

لا تدفع بالأصابع إلى الغيرة. اليدُ، هي التي تهُمُّني.

لأرفع قبضتي الآن، وها هو النّحل.

كليرمون فيرون، نيسان/إبريل 1956

كنت ترغب بالسُّمو

لذلك لا تنصت

إنّي أندّدُ بالوردة التي تنتهي عند الصّخرة

أيها الشاعر السّعيد الذي سيصمُت

لك الحق في الكلام الآن

عشرة ملايين ذكرى بحوزتي الآن

وربّما أكثر بكثير

إنني، أدافع عن عطر الزهور المُختَرَعَة

في طائرتي الملعونة، ينقضُّ الناس عليّ

أبداً، لا نحبُّ بما يكفي

ألعقُ فكرتي كقطعة حطبٍ

حُلمي؛ مدينة أصوات ترافق اللّيل

الذي علينا أن نغتالَه

علينا أن نغتاله

حتى تعود إليه الحياة

أنصتْ إليّ، إنني مرعوب

سوف نمضي لرؤية أصدقائنا الأموات

قريةً حلّقت فوق عظيم يأسٍ عجيب

ذكرى ملتوية مثل مسمار

أملاً أعتى انكساراً من زجاج مطَر

الغزالةَ المجنونة التي كانت تعرف الأسطورة

الخرافَ الميتة، الرّجال الذين حلّقوا

سوف نغدو من أجل رؤية

ورشة جهنّم لمخترعي المغامرات

اللامنتهى الذي نفرضُهُ على موتِ الفُتوّة

وللمذاق الحادّ الذي تكـتسيه طباع تصرُّفنا

لا بدّ من الحياة

أتذمّرُ في كل مرّة

أكون فيها بعيداً عن الجزائر

سوف نخترع تقويماً مغايراً

سوف نذيبُ كلماتٍ في نعوش أصدقائنا

سوف نمسحُ دموعنا في أكفان رثّة

وسوف نخبرُ أبناءنا الذين تيتّموا ألف مرّة

بأنّ عليهم أن يُنجبوا أطفالاً يعرفون أبناءهم

ويصرّحون:

وطني رجل

عند هذه التجاوزات، حُدود قلبي

أتذمّرُ كل مرة أكون فيها بعيداً عن الجزائر

عن قريب سوف نقيم أنغاماً تنشدُ

البارودُ يصيبني بالتذمُّر وأنا أعرف البارودَ

أفضّلُ زنبق الوادي خطيباً في شهر مايو

لأن شهر مايو يذكِّرُني بقالمة

لأن كلَّ الأيام صارت تحمل ذكرى

وعبر كل الطرق التي تمضي نحو النهار

أبحث عن اسمي داخل الشّاهدة

مستغرباً كيف لماضٍ أن يُحضّرَ لغدٍ

وأنا، بنيتُ دوماً غَدي على نغمةٍ آتية!

هل ترغب ببعض الشّمس؟

بعضَ الشمس إليك بها

تعال،

إنني أبتسم لك يا قطّيَ الصغير

زرقاء هي السماء

والبحر يُخبرني

بأنني أتموّجُ داخل عينيك

هل ترغب ببعض الشّمس؟

بعض الشمس إليك بها

تعال،

إنني أبتسم لك يا قطّيَ الصغير

لأجل الشمس، لديّ صباحٌ

أمنحكَ النهار

أطلبُ من الموجة

ألاَّ تغرَقَ

وأن تمضي إلى بلدي وتخبرَهُ

كم أنا أعشقه!

لا شيء يُخاطُ، لا شيء يُمزّق

موسيقيٌّ خانته موسيقاه لحظةَ النّغم

أستمعُ إلى أغنية لم أكتبها

سرَقتُ الأغنيةَ

أتحدثُ بكلمات تنبُـع من أفواه غيري

يتيم القبلاتِ أنا

كلّ مرة صار بيتُ الفجرِ بعيداً

أبداً لن يُغنّي طائرُ الصَّفاري

فبعيداً جدّاً عن الشمس تحترقُ الأجنحة

وبعيداً جدّاً عن الصُّبح، يبدأ الليل

لكلاب في منفاها نحيبٌ متوحِّش

حين أعشق عندليباً

يرغب الكلّ في أن يسجِّلَ له أُسطوانة

حينها

أعرف ذلك

تُسرقُ الغابات...

أريد أن أبتسم للأغنية

التي ستقول رغم كل شيء

الموسيقيُّ ليس سعيداً.

المسيرة الطويلة

أنا نقطة النهاية لرواية تبتدئ

لم أقل، لننسَ كل شيء، ولنبدأ من الصفر

أحافظ بعينيّ السليمتين على رومانسيتي

ودون أن أنكر أي شيء أعاود الانطلاق من جديد!

أنا نقطة النهاية لرواية تبتدئ

ما فائدة التمييز بين السّماء والأفق؟

فما بمقدورنا أن نفرِّق بين الرّقص والموسيقى

وبرنُسي، هو امتداد لبيتي في أي مكان

أنا نقطة النهاية لرواية تبتدئ

من صحاريّ الاثنتين، سأحبك أغاني

أحفظ بعينيّ السليمتين رومانسيتي

أنا، في حقيقة الأمر، التلميذ والدرس

أحياناً أذكر أني كنت راعياً

حينها، ينمو بعيني ذلك الشغف التليد

لذلك الفلاح الذي ينظر بيديه العصيّتين على الكَسر

تاريخَ بلدٍ سيولد فيه البرتقال

أحياناً أذكر أنني كنت راعياً...

كسرتُ الرّغيف

اقتسمت التين

بناتي

تزوجن زيجة لائقة

لا تشبهها زيجات أخر

مصحوبات بالبندقية

التي كانت بيد أخيهن الكبير

وكانت زوجتي أجمل امرأة في الوادي

عندنا، لكلمة «وطن» طعمُ الغضب...

يدي، لامستْ قلبَ شجرِ الزيتون

مقبضُ الفأس، هو بداية ملحمة

وأنا، رأيت جدّي الذي يحمل اسم المقراني

يضع مسبحته كي يرى مرور النُّسور

عندنا، لكمة «وطن» طعم الغضب

أبتـــــي!

لماذا منعتنَني

من موسيقى الجسد

انظُر:

ولدُكَ

يتعلّم كيف ينطق بلغةٍ أُخرى

تلك الكلمات التي كنتُ أعرفها

أيام كنت راعياً

آهٍ يا الله، كم من ليلةٍ قرّت بعينيّ تلك اللّيلة!

أمّي تُدعى «يمّا»، وأنا أسمّيها والدتي

أضعتُ برنسي، بندقيتي، قلمي

وأحمل اسماً أشدّ اعوجاجاً من طباعي

آهٍ يا الله، بماذا يفيدُ الصّفير في تلك الليلة؟

أنت خائفٌ يا أيها الخوف، خائفٌ أنت يا أيها الخوف، خائفٌ أنت يا أيها الخوف..

وبما أنني أخبركم أنّي فرنسي

فلتحكموا على لباسي، على لكنتي، على بيتي

أنا من يجعل من الأصل مهنةً

ومن يقول: «تونسي»، في إشارة منه إلى البائع

أنا من يعي بأن اليهوديَ جنديٌّ سيّء

أندجين، كفاك مزاحاً، أختي بلا حجاب

وفي الليسيه، ألم أحصد كلَّ جوائز اللغة الفرنسية؟

اللغة الفرنسية، اللغة الفرنسية، اللغة الفرنسية..اللغة الفرنسية

آهٍ يا الله، كم من ليلةٍ قرّت بعينيّ تلك اللّيلة

ذات ثامن مايو...!

استدارت الأرض

وزمجرت الرُّعود

وأخطائي! تخليتُ عنها

داخل قبوري

ذات ثامن مايو

ولكن، ما المقابل الواجب من أجل الفهم؟

وكم من أستاذٍ من أجل درس مماثل!

وكم من موسيقي من أجل عشق الموسيقى!

ذات ثامن مايو!....

كما لدى المرأة، فلا انتصار شامل

دون عيونِ الوليد التي تـتواصل عيوننا به

كما لدى الغابات، فهي بحاجة إلى عشّاق يعمّرونها،

كي نُخبر ريح المساء كم هو يحميهم

كما لدى القارب وهو يمضي، بحاجة إلى شراع

و إلى منديل صغير لن ننساه

وكما قد ينقص رجلٌ في النّوع البشري

كنت أيضاً بحاجةٍ

إلى حديقة من أجل ورودي

إلى عطر من أجل زهوري

ثمّ إلى حدائقي

لأصدقائي عيونٌ، رأيتُ عليها الغضبَ

لأصدقائي عيون رأيتها تتبلّل

أصدقائي سيحيكون علماً وطنياً

ريحٌ عظيمةٌ، ستهبُّ واقفة، شاسعة، تاريخية

تجعل عشرينياتــنا تنتقم لشيبنا

آهٍ!

علينا أن نتحلّى

بشجاعة النّحل

كي نستحقّ العسل

ونغنّي لأصدقائي

أعرف جيداً أن دموع مدريد لم تجفّ

دمَ مدريد لم يجفّ

وأعرف جيداً، أنّه، وقريباً من غرونوبل،

يوجدُ مكتبٌ عظيمٌ للشّرف

وأعرف بأن سِيؤُولْ كانت لها عيونٌ مفقوءة

وحقول أرزٍ في الهندِ الصينية

سمفونية حمراء للمندوبين الملغاش

منفًى لسلطانٍ شيوعي

أعرف جيداً، أننا نمتلك كلّنا اليوم

احتكار الشّقاء

أعدُّ أصدقائي

أصدقائي المتوّفّين

أتوقّفُ عن العدّ

أتوقَّفُ عن العدّ حين تستحيل الكلماتُ إلى أعداد

إلى الأغنية التي لن تأتي أبداً

قلبي فقيرٌ لفالسٍ بطيئة جداً

كنتُ أميرَ مايو، يوم كنتِ تحببينني

عاشقُ النسيم اختار الإعصار

اخترتُ الابتسامةَ عسى دموعي

تتطهّرُ من كآبة حنين حكايانا

عسى الحنين يطفو على مياهِ

مجرًى يعلو، وعلينا أن نمضي على إثره

أسمع عبرَ أقاصي الزَّمنِ نغمةَ فلامينكو

أنادي على الشَّقاء كي أكسِرَ وجهه

كنت أميرَ مايو، يومَ كان الجوّ جميلاً

وفي أعماق الصحراء، غزالتي كانت جدُّ وحيدة

أستمعُ إلى الأغنية التي لن تجيء أبداً

إنها تُمطرُ على الشّمس التي تجفِّفُ ابتسامتَها

على يد الماضي حين كنتُ أميرَ مايو

إنها تُمطر على حُبّي الذي لم يعد يعرف كيف يقول ذاته

لا حقيقة إلاّ في الحبّ العظيمِ وفي الموسيقى

وأنا أعرف أنّ داخل كلِّ حبٍّ، وسواساً لا ينتهي

لا بدّ من صحراوَينِ كي نعرف اللامنتهى

عصفورٌ يمارسُ الجنونَ على الأرض

وحين يستخفّ قليلاً ببذور الجَنْي

يصبحُ هو الطائر الأزرق بكامل خيميائه

ويستحيلُ إلى الأغنيةِ التي أبدَعْتُها

تعرّفتُ إلى أغنيتي ذات صباحٍ ضاحك

كانت مكتئبةً. قالتْ: بنفسج

فرولةٌ جاءت لتؤيّدها، وأغنيتي أنشدَتْ

استعدتُ صوابي حين فقدت عقلي

حينها، ناديتُ. زجاجةٌ في البحر

قصدَتْ ركنَ حلمٍ لكي ترقصَ فيه

ذلك الذي يشعُرُ بالألمِ يعي جيّداً بأن للصّحراء

ذلك الجنونُ الغريبُ الذي تحسبُ فيه نفسَها شاطئاً

حينها، ناديتُ. كان لا بدّ عليّ أن أنادي

هالتي سحابةٌ، وطائرتي

كانت ترقص بعينيكِ وهي تتسوّلُ شرارةً

ونجمةَ سلامٍ عند آخر الأفق.

يطفو الغريقُ عند خيط ماء

ينسجُ شعرَه قصباً

ينهمرُ حلماً

ووحده

العصفورُ يحرسه

ويحمل روحَه

إلى مكان ما من الحلم

يمكنُ فيه للغرقى أن ينشدوا

هنا، ينتهي التفكُّك

الإنسانيةُ

تبتدئ بين ذراعيّ

قديماً، كان هذا قبل تاريخي

لحبّي مذاقُ الأكوان التي تتراقص

سوف نمضي داخل الموسيقى كي نجمع النّاس

وعليكم أن تشرحوا لي

أبديّة الموت وعظمة الحياة

ليس لي من مهمّة غير واجبي

أغني عن مبدأ

أغني، وأنا أعشق هذا

أمنح إجازتي لخدّام الشقاء

تعالوا يا صبـيان، كي أنسج لكم حكايةً

كي ألتقط نجمة، حتى أخطّ بها كلمةً

كان ذات مرة

هناك

في وطني

ولدٌ يريدُ كرة

كان طفلي الصغير

بعينين دائريتين كالأرض

والآن وقد قضى

- قضى بسجنه -

وحين أرى كرات

- وقد قضى

دون كرتــه -

أشكُّ دوماً بأن الأرض كرويةً

ليس لي من مهمّة غير واجبي

والإنصات إلى الأرض...

كتبت دوماً لأجل أن أستحقّ أُمي

أمي، على الدوام جميلة

أرافقها كل يوم

تدعى «حمامة»

وبالعربية هذا هو اسمها

بالأسطورة رياح تهبّ

وها الأسطورة تفتح ذراعيها

كنت قد حدّثتهم

كنت قد شعرتُ بيدهم

كان لديهم أطفالٌ، وحتى بعض الأخطاء

كم كانوا يحسنون الابتسام في الظلام!

قابلتهُم حين كنتُ أشتري جريدة

كانوا أصدقائي، ما كانوا كلماتٍ

أرقاماً أو أسماءَ

كانوا ألفَ صباح وعشر سنين منّي

الزّادَ الذي نتقاسمُه

سيجارةَ السّأَم

كانوا يعرفون أبنائي

كنت أمنحهم كل أشعاري

والدتي، كانت تعشق قلبَهم

كانوا رفاقي

وكنت قد حدّثتهم

بالأسطورة رياح تهبّ

وها الأسطورة تفتح ذراعيها

وها قد أصبحوا روحاً... ووطناً لي

أبداً لن أرى صديقيَ المنجمي

ابتسامته، كانت تنير نظرته المريرة

صديقي القصّاب، والآخر المعلّم

والآخر المربّي

وأنا أعتذر، لأنني على قيد الحياة

فأنا أكثر يُتماً، من ليل دون قمر

بالأسطورة رياح تهبّ

وها الأسطورة تفتح ذراعيها...

على الطاولة المستديرةِ

مصباحٌ أحمرٌ

و ظلُّكِ

عند حافّة كأس

أتألّمُ: قالت الوردة

أعيدوا إليّ المرجَ

وردةُ الحرية

أنا، أتذمَّرُ عند البيانو:

قال البلبلُ

أعيدوا إليّ الغابة التي تُدْعَى موسيقى

أتألّمُ: قالت أحبُّكَ

أنا، أتذمَّرُ على الورق

أعيدوا إليّ القبلاتِ التي هي مخطوطاتي

أنا، أتذمَّر: قالت الصورةُ

أعيدوا إليّ الضحكة التي كانت عيوني بها تبتسمُ

يؤلمني كوني مرآةً:

أخبرَتني الصورة التي هي على قيد الحياة

قضى رفيقي وسط القيثارات

وعند حقلِ قمحٍ.

مَرِحٌ هذا

كان يافعاً

كان جزائرياً

كتبَ قصّتي الجميلة

كان يحسن الغناء، أفضل من حقلِ قمح

أريد أن أقول: شكراً

لأنه يصنع موسيقى، فأنا موسيقي

أظلّ مستعدّاً أمام الحلم الذي عليّ أن أصنَعَهُ

وأقول لك: شكراً

عند حقول القمح الآن أنا أعرف اليعسوب

انتقم له يا أيها النّبع

ولتجعل الأباريقَ تسأَم

ولتذهب إلى أحضانه يا شقيق النعمان

أخبِرْهُ، بأنه يحلم بقصيدة.

ولتجعل الأباريق تسأم

ولتمتلئ بالبارود أيا قلبي

إنَّها تمطِرُ ببلدي، موتاً وأسطورة

سنبلةٌ تكفي، كي تهزُجَ حقول القمح

وقتٌ يكفي، كي يَنزلَ الليلُ

ووقتٌ يكفي أيضاً، للنّهار كي يطلع.

الخبزَ

تتناولُه

بألف هاجس

بألف احتراز

رجلٌ هو صديقي

ينام بالأسطورة.

أمي

لا بدّ من البكاء...

لا بدّ من البكاء على هذا الولد الذي صار ابنكِ

حالماً اختار أن يناديك: «أمي»

باسم المواسم أسماك «أُمي»

ورضع من نهدك طعمَ الضّوء

إنها تُمطر على أسطورتي

وأعينُ أسطورتي تتألّم

وحين تجتمع الغربان

فحتماً، لأنها تخشى الموت...

هنيئاً لك يا سيّدي

لم يبلغ بعد الثلاثين

زميلي الذي تمادت رؤاه الشّامخة

بيد أن الغربان تسرق البذار

والمزاعُ يعلم بذلك ويخشى على أخاديده

بيد أن الصقور، تنكش السنابل

وقلبي يعلم بذلك جيداً، ويخشى على أغانيه

هو حلم شديد الحرّ على أرضٍ جزائرية

نسّاجُ البيرقِ، صانع حنطة

حين كان يخوض الحربَ، كانت الحربُ عاقلةً

ولأجل اصطياد الشتاء، قضى صيفاً

أُنصتُ إلى الأغنية دائمة العودة

هي الغبطةُ التي أنصتُ إليها، على الأرض الجزائرية

جندُ الصّباح، هم أبناء الصّبابة

ينامون فوق السنابل، حتى نتذكَّرهم أخيراً

فلترقصي يا شقيقات النّعمان

زميلي قضى وسط القيثارات

احرصوا على الصمود يا رفاق

فالجبلُ على حقّ

خَطْوُ الموتى ثقيل

ما اسمك؟

أدعى جثةً

كنت حيّاً ولديّ بناتٍ

شربتُ حليباً

ماءً

وهماً

احرصوا على الصمود يا رفاق

فالجبل على حقّ

شظايا قلبي، هي شظايا «القُربي»

أردت أن أرعاها في حقل يأس

كتبتُ الموتى، أخبرني الموتى

قد تغدو موسيقى الموتى، مهد الرومنسية

بعدها الموسيقى!!

في الحاضر، الشقاء

خطو الموتى جدُّ ثقيل

وسوف يغدو سلّم نغم الصّباحات.

الشقاء الجزائري الشقاء عظَمة

يتغنى بنشيد الغدِ السّعيد

والإنسانُ، أغلق ذراعيه

وتباكى داخل غبطته

الموتى لا يكترثون للضّحكات القادمة

على «القُربي» المشتعل يزرعون الأغاني

على دمهم الجداولُ

وداخل أعينهم المحيطُ

وحنطة الإملاق صَدحَت بالفلامينكو!

عليك أن تغني، يا أيها الرّاعي

المشاعلُ رجال

الموتى لا يكترثون للضحكات القادمة

احرصوا على الصُّمود يا رفاق

فالجبل على حقّ

للموتى الذين يحمونكم

السُّلطة المطلقة والمسؤولية العسيرة

للإبقاء علينا أحياء

مثلما نضع وردةً

على حجر الهدوء

أتمنّى دون أن أستجدي

متأكِّد أنا من الفرح

الفرحةِ التي ستكون جزائريةُ

فرحة تلك القرية التي سيولد فيها أطفال

يقصدون المدارس

وتغدو هي مجنونة من الفرحة

كسعادة أولى

ظنوني أكيدة

احرصوا على الصُّمود يا رفاق

فالجبل على حقّ

أفراحٌ وحلوى

سنكون كلّنا على استعداد

وسوف يخلد الجبل إلى الرّاحة

الفرحةُ ستعمُّ بلدي

المناديلُ للزكام

لا للأشجان

القماشُ للأغطية لا للأكفان

الفرحةُ

أكثرُ بساطة

من صباح خير

في المدهش اليومي

بالبيت الذي نرتِّبُه ونعيدُ ترتيبَه

الفرحةُ

يا يتيمتي

ستكون لها أُمّ

الآن، وأنا أحيا

فلأجل الريح العظيمة

أي

من

أجلك

حين يقطع «البول ميتش»[20] خطوته البعيدة

ألوم أنا أصابعي كلّها

الطريقُ لأجل أقدامي

20- البول ميتش: مقهى شهير في «سان ميشيل» بباريس. تحدث عنه مالك في أعمال عديدة.

أولّالاه...تلك الطريق التي تمضي إليها الشُّموس

أين يصدُقُ القمر الذي يحمي الرجال

باريسُ لا تفهم شيئاً حين تصرخ كُلّ آريس

أضحكُ حين تجعل القططُ الفئرانَ ترقص (عذراً)

وأفكر في الإله الطيب الذي خانه الفهم

أحتاطُ أنا من القطط، تماماً كما الفئران

أعشقُ كثيراً، هذا الزمنَ الذي يمنحني الحياةَ

يُدعى: أنصتوا

صُمُّوا آذانَكم

أشرِعوا القلوب على آخرها

يُدعى مرافقاً، وسوف ألحق به قريباً

يُدعى بيتاً، حيث تمارِس أمّي الصَّبر

يُدعى..أوهْ يا صديقَ القيثارات المكسورة

يُدعى

جزائر

عاملٌ شمالُ-إفريقي

اختنق في كوخه القذر

أغنيتي الأولى، انتهتْ بنحيب

فاطمةُ أسلمت نفسها من أجل قطعةِ خبزٍ.

عبر أحداثٍ بسيطة

نكتب التاريخ جيداً

للشقاء سندٌ متين

ولكن، أخبروني عن اسمه

هذه السماء كفنٌ

وعندنا، هي مِشعلٌ

يوم أحدٍ، بعينين مفقوءتين

خريفٌ منهوبٌ

ليس هناك يوم واحد بلا ذكرى

نوطاتُ الشقاء

صنعت سمفونيتي

للشقاء سندٌ متين

ولكن، أخبروني عن اسمه.

خُلِقت أنا، كي أخاطب البنفسجَ الهادئ

نسجتُ «ڤالس» على صدارة من أزهار

بيد أنّني

رأيتُ ذلك الفلاح

يتحوّلُ إلى قاطع طريق

حين يحبّ زوجه كما يحبّ وطنَه

للشقاء سندٌ متين

ولكن، أخبروني عن اسمه

رأيت مدينتي

مدينتي حالةُ طوارئ

لو أن الزّمن يتقدّم

عبرنا

فلأن الشمس هي التي اختارت مهدها

عند المشرق

للشقاء سندٌ متين

ولكن، أخبروني عن اسمه

جاريَ المفضّل

هو دائماً الجندي

لم يرَ الفرحة

التي حضّر لها

الفرحةُ حاضرةٌ دوماً لأولئك الذين احتفلوا دوماً بها

للشقاء سندٌ متين

ولكن، أخبروني عن اسمه

لأمي وللحمامة

الاسم ذاتـه

أمي تبكي كلّ يوم

شعرُها الأبيضُ، هو الحارس

تعرف أغانيَ، نسمعها بصوت خافت

للشقاء سندٌ متين

ولكن، أخبروني عن اسمه

أخبروني عن القبلةِ التي حُرمت منها

أخبروني عن تلك الصحراء التي أكتب أغاني لأجلها

أخبروني عن الغزالة التي اغتالوها

وأخبروني عن الوردة التي لا بستان لها

أخبروني عن سبب الألفِ جنون

أخبروني عن تلك الكحول التي نتشرّبها عند الفزَع

أخبروني عن فزع الأُسودِ في المنفى

وأخبروني خاصة،

كيف هي الجزائر!!!

أمنحكِ شاطئاً

بحراً مغمًى عليه

وذلك العصفور الذي يـيتِّمونه

ثمّ قلبي

الذي لا يتقن الوجيب

حين عرفت قلبي

كان صينياً صغيراً

وكانت للشمس ضحكة صفراء

حين كانت يدُك تنسجُ كلماتٍ.

مهمّةٌ منجَزة

وحين عاد السّلام

قالت الحمامةُ:

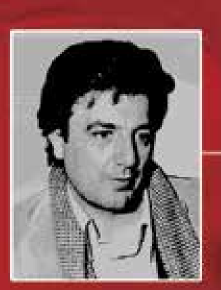
فلتغربوا عن وجهي

سأعود طيراً...



صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أبديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر الحداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة شرف الدين شكري



عام جديد بلون الكَرز

مختارات من أشعار ونصوص **مالك حداد**

رغم أن الشاعر لم يُصدِر سوى ديوانين في حياته هما «الشقاء في خطر» و«أنصِتْ.. وسأناديك» إلا أنه يُعتَبر من قِلّة من الكتّاب المتمكّنين من ناصية الشعر إلى درجة أن كلامه العادي ومقالاته الصحافية كانت شعراً. إنه ساحر يسحر كل من يقرأه أو يستمع إليه، وحتى وإن شاء دارسون أن يصنّفوه في خانة الكاتب الملتزم، فإن التزامه كان طبيعياً، أي ابن مواقفه الشخصية من الحياة والعالم



www.aldohamagazine.com